موضوعية المؤرخ «وليم الصوري» في ميزان النقد التاريخي

جمال محمد الزنكي

مدرس بقسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الكويت .

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

العدد 22/85

الملخص

تتناول هذه الدراسة موضوعاً مرتبطاً بعلم فلسفة التاريخ ، وهذا الموضوع هو الموضوعية لأحد مؤرخي الحروب الصليبية المعاصرين ، وهو المؤرخ اللاتيني المشهور بوليم الصوري ، رئيس أساقفة صور . فهذه الدراسة نموذج لموضوعية أحد مؤرخي العصور الوسطى الذين عاصروا المشروع الصليبي ، وقد عاش في مملكة «بيت المقدس» الصليبية بين سنتي 1130م و1184م . فالهدف الأساسي لهذه الدراسة هو التحقق من مدى موضوعية هذا المؤرخ الذي يمثل نموذج المؤرخ رجل الدين في المقام الأول ، ثم رجل السياسة والعلماني تالياً ، فوليم هو رجل دين تولى مناصب كنسية أهمها رئاسة أساقفة كنيسة صور بين عامي 1175م و1184م ، كما أنه تولى مسؤوليات سياسة أوضحتها في مقدمة هذه الدراسة ، فقد تجاذبته ـ في كتابته التاريخية ـ قوتان هما قوة الدين وقوة السياسة العلمانية .

وقد اقتصرت في دراستي على تتبع موضوعية «وليم» تجاه بعض القادة العلمانيين في الحملة الصليبية الأولى ، الذين اسهموا بجهد واضح في هذه الحملة وفي تحقيق أهدافها ، كما أنهم تولوا حكم الإمارات الصليبية في بداية تكوين الكيان الصليبي في الفترة ما بين سنتي 1095م و1127م . وهؤلاء القادة هم «جودفري» أول حاكم لمملكة «بيت المقدس» الصليبية ، وأخوه «بلدوين» أول كونت لكونتية «الرُها» الصليبية ، وسيخلف أخاه «جودفري» في حكم مملكة «بيت المقدس» ، و«بوهيموند» أول أمير لأنطاكية ، و«تانكريد» الذي شارك خاله «بوهيموند» في حكم «أنطاكية» ، ثم خلفه في حكم «أنطاكية» بعد وفاته . وقد أوضحت في مقدمة البحث أسباب اختياري لهذه الشخصيات ليكون تطبيقاً عملياً للتعرُّف إلى موضوعية المؤرخ «وليم الصوري» من خلال كتابه المشهور «**الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**» .

وقد قسمت الدراسة إلى عدة موضوعات ، فدرست كل شخصية من هذه الشخصيات على حدة ، وتتبعت موضوعيته تجاه تلك الشخصيات من خلال استقراء إسهام الشخصيات في صناعة الأحداث التاريخية وصفاً وتحليلاً وتفسيراً ، كما قارنت هذه الأوصاف والتحليلات والتفسيرات بمثيلاتها في مصادر لاتينية معاصرة ، وهي أساساً كتابات «فوشيه الشارتري» والمؤرخ النورماني المجهول صاحب كتاب «**الجستا**» وريموندا جيل . وقد بذلت جهدي لأكون موضوعياً في طرحي لهذا الموضوع حتى لا أنتقص مؤرخاً مشهوراً عاش في عصر وبيئة يندر أن ترى الموضوعية فيها تطبيقاً عملياً في الكتابات التاريخية .

المقدمة

تتناول هذه الدراسة الموضوعية المؤرخ الصليبي المشهور بوليم رئيس أساقفة صور ، وهو الذي اشتهر عند المؤرخين العرب المحدثين بوليم الصوري . وسأقتصر في التأكد من مصداقية هذا المؤرخ على مؤلفه المعروف بـ«**الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**» ، والذي يعرف باللغة اللاتينية باسم : Historia rerum in partiblus transmarinis gestarum ، واعتمدت على الترجمة العربية التي قام بها حسن حبشي ، وقد صدرت في أربعة مجلدات بعنوان «**الحروب الصليبية**» تحت سلسلة «**تاريخ المصريين**» التي تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب . وقد صدر الجزء الأول في عام 1991م حاملاً رقم (45) ، والجزء الثاني عام 1992م حاملاً رقم (55) ، والجزء الثالث عام 1994 حاملاً رقم (68) ، والجزء الأخير صدر عام 1995م حاملاً رقم (77) .

والجدير بالذكر أن «وليم الصوري» قد ألف عدة كتب منها كتاب بعنوان «**إنجازات الملك عموري**» "Gesta Amalrici regis" عام 1167م ، وألف كتاباً بعنوان «**أعمال أمراء الشرق**» "Gesta Orientaluim Principum" . وهذا الكتاب مفقود كما يذكر بيتر أدبوري في كتابه William of Tyre/Historian of the latin East . ويرى مترجم الكتاب حسن حبشي أن «وليم الصوري» اعتمد في دراسته «**الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**» ـ بخاصة فيما يتصل بالفترة ما بين سنتي 1095م و1127م ـ على كتاب لمؤرخ نورماني مجهول يحمل عنوان « **أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**» "Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimtanorum" .

وكذلك يرى اعتماده على كتاب ريمون الأيلي ـ القسيس الخاص لريمون كونت «تولوز» ـ تحت عنوان «**تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس**» . "Historia Fran-corum qui ceperunt Iherusalem" . وقد ترجمه إلى العربية الدكتور حسين محمد عطية عام 1989م وأصدرته دار المعارف بالإسكندرية ، ويسميه المترجم بريمون داجيل . واستعان «وليم الصوري» كذلك بكتاب «فوشيه الشارتري»

الذي يحمل عنوان «**تاريخ الحملة إلى بيت المقدس 1095 - 1127م**» "Fulcher of Chartres, Historia, Hierosolymitana, 1095 - 1127" ـ وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية قاسم عبده قاسم تحت عنوان : «**الوجود الصليبي في الشرق العربي**» ، وهو من إصدار ذات السلاسل عام 1993م ، الكويت . وقد اعتمدت الترجمتان في هذا البحث .

ويرى بيتر أدبوري أن «وليم» استعان في الفترة السابقة من بلوغه وتفهمه لمجرى الأحداث على مصادر أربعة ، وهي كتاب المؤرخ المجهول المعروف بالجستا وريمون داجيل وفولشر دي شارتري وبالديك أف دو وألبرت أف آخن ، ولكنه أي «وليم» ـ لم يستفد منهم بدرجة متساوية . ويرى بيتر أدبوري أن «وليم» قد استعان بفولشر دي شارتري بصورة أكبر ، ولم يكتف «وليم» بالأخذ من هؤلاء بل أخذ من غيرهم ، وبخاصة من كبار السن الذين شهدوا الأحداث ـ ويضرب بيتر أدبوري مثالاً على استعانة «وليم» بالمصادر السابقة في فترة حصار الحملة الصليبية الأولى لأنطاكية بين عامي 1097 - 1098م ، حيث يرى استعانة «وليم» أساساً بألبرت الذي أطرى دور الدوق «جودفري» دي بوريون في الاستيلاء على «أنطاكية»[1] .

وقد صرح «وليم» ـ في أكثر من موضع ـ بتوخيه صدق الخبر وحرصه على الموضوعية ـ فقد ذكر في مقدمة كتابه «الأعمال المنجزة فيما وراء البحار» ما نصه : «إن تدوين أعمال الملوك مهمة مخفوفة بالصعاب والمخاطر ، وإذا نحينا جانباً ذكر الجهد الذي لا ينتهي والمعاناة التي لا تنقضي ، وما يتطلبه عمل هذا النوع من التحلي باليقظة الدائمة ، فإن هوة سحيقة تفتح فاها أمام كاتب التاريخ الذي يلقي المشقة العظمى في محاولته تجنب هذا الأمر أو ذاك . . . ، ذلك لأن الكاتب إما أن يؤجج غضب الكثيرين ضده أثناء جريه وراء حقيقة ما وقع ، وإما أن يلتزم الصمت إزاء مسيرة الأحداث ، أملاً منه في أن يقلل ما أمكن من الامتعاض منه ، حتى يبدو بلا أخطاء ، وذلك لأن تعمد مجاوزة الصدق وإخفاء الحقائق عن قصد يُعتبر أمراً مخالفاً تمام المخالفة للواجب الملقى على عاتق

المؤرخ ، ومما لا شك فيه أن فشل الفرد في أداء الواجب المفروض عليه إنما هو خطأ ، إذا كان مفهوم الواجب في الواقع هو مطابقة سلوك كل فرد لما يتفق وعادات بلده ونظمه»[2] .

ويؤكد «وليم» حرصه على تحري الموضوعية فيقول ما نصه : «إن الجري وراء سلسلة من الأحداث ـ دون إدخال تغيير عليها أو تحريفها عن محجة الصدق ـ إنما هو مسلك يثير الغضب على الدوام (أي يثير غضب غير العادلين)» . ويضيف : «إما أن يتراخى المؤرخون في أداء الواجب الذي تقتضيه مهمتهم فيبالغون في إظهار التوقير الذي يجاوز كل حد . وإما أنهم في بحثهم الجاد عن حقيقية مسألة من المسائل يجلبون على أنفسهم الكراهية التي تنجم عن قول الصدق ؛ ومن ثم فإن السائد هو أن سمة هذين السبيلين أن يخالف كل منهما الآخر ، وأن يُصبحا مصدر تعب لما يفرضانه من مستلزمات لا مناص منها» . ويزيد مفهوم الموضوعية وضوحاً بقوله ما نصه : «إن تعامل المرء بلين مع الصديق يحمله على الاندفاع في التهور المؤدي للخراب ، وهو إحساس ينعكس على المرء الذي يجور على مقتضيات الواجب ، فيكتم الحقائق الثابتة رجاء أن يكون أريحيّا» . ثم يوضح «وليم» حرصه على عدم المداهنة لأحد فيقول : «إن الكتاب الذين تدفعهم الرغبة في المداهنة إلى أن يُضمّنوا عن قصد في ثنايا مؤلفاتهم التاريخية ما ليس بحق إنما يسلكون مسلكاً شائناً ، والأحرى أن لا يُدرجوا في عداد المؤرخين ، وإذا كان إخفاء الحقائق الثابتة المتعلقة بأمر من الأمور يعتبر أمراً شنيعاً يناقض مهمة الكاتب تمام المناقضة ، فالأشد شناعة منه هو أن يخلط الحق بما ليس بحق ، فيقدم للأجيال القادمة ـ التي تعتقد فينا قول الحق ـ ما هو كذب صراح على أنه حقيقة»[3] .

وقد أكد «وليم» حرصه على تحري الموضوعية خاصة ، تجاه القادة الصليبيين ـ وهو صلب موضوعنا ـ بقوله : «إننا في كتابنا الحالي هذا وقعنا في محاذير متعددة وشبهات جمة ؛ ذلك لأن سرد الأحداث تطلّب منا أن ندرج في هذه الدراسة التي نقوم بكتابتها الآن كثيراً من التفاصيل عن أخلاق الملوك

الشخصية وحياتهم وطباعهم الذاتية ، غير ملقين بالاً عما إذا كانت هذه الحقائق حميدة في حد ذاتها ، أم أنها خليقة بالنقد الذي تستحقه ، ومن المحتمل أن تجد الأجيال التالية لهؤلاء الملوك ـ حين متابعتهم للكتاب ـ صعوبة في قبول ما احتواه بين دفتيه ، أو قد تغضب هذه الأجيال من المؤلف غضباً لا يستحقه . وحينذاك سوف يعتبرونه أحد رجلين : إما أنه كذاب أشر ، أو حاسد كفور ويعلم الله أننا بذلنا جهدنا ، كي نتجنب التهمتين تجنب المرء للطاعون[4]» .

إن «وليم» ـ كما هو معروف ـ رجل دين دنيوي تقلد وظائف دينية كبيرة في مملكة «بيت المقدس» كان آخرها رئاسة أساقفة كنيسة صور ما بين عام 1175م حتى عام 1184م ، وكان يطمح أن يتقلد أعلى منصب كنسي في المملكة وهو بطرك «بيت المقدس» ، ولكنه لم يحصل على هذا المنصب بالرغم من سعيه نحوه بقوة ، كما أنه من الجيل الثاني لصليبيّ الشرق ، إذ وُلد في مملكة «بيت المقدس» عام 1130م ، وأمضى عشرين عاماً في أوروبا الغربية في طلب العلم ، ورجع حوالي عام 1165م لمملكة «بيت المقدس» ، وتدرج في المناصب السياسية والإدارية بالإضافة للمناصب الدينية ؛ فقد أُوكل إليه أمر سفارة من ملك «بيت المقدس» عموري الأول (1163 - 1174م) إلى بلاط الإمبراطور البيزنطي مانويل عام 1168م ، وذلك لطلب نجدة بيزنطية ضد صلاح الدين الأيوبي في مصر ، كما عُين مشرفاً لديوان الرسائل في مملكة «بيت المقدس» ، ولربما زاد ذلك من فرصة اطلاعه على الوثائق الرسمية[5] .

وقد اكتفيت بدراسة موضوعية «وليم» تجاه القادة الصليبيين العلمانيين المشاركين في الحملة الأولى في الفترة ما بين 1095م إلى حوالي 1127م ، وهم «جودفري» دوق اللورين الأدنى ، وأخوه «بلدوين» صاحب بويون ، و«بوهيموند» أمير «تارنتو» ، وابن أخته «تانكريد» ، وهؤلاء القادة هم أكثر القادة إسهاماً في الحملة الصليبية الأولى ، كما أنهم أقاموا الإمارات الصليبية . وهذه الفترة الزمنية لم يعايشها «وليم الصوري» فلربما كانت موضوعيته لذلك أكثر وضوحاً[6] .

وسوف أقتصر على وصف مبسط للحدث التاريخي الذي استشهدت به مثالاً لموضوعية «وليم» ، ولن أشغل نفسي في تفاصيل الأحداث التاريخية ، وذلك لأن الهدف من هذه الدراسة هو تعرّف موضوعية «وليم» وليس تقويماً لعمله التاريخي أو دراسة ظاهرة حضارية معينة أو سيرة ذاتية للقادة العسكريين وغيرهم ـ وربما تحدثت عن موضوعية «وليم» تجاه شخصية صليبية كبلدوين شقيق الدوق «جودفري» وذكرت علاقته بتانكريد ، وهنا ربما جمعت في دراسة موضوعية «وليم» بين الشخصيتين ، فاكتفيت بدراسة موضوعيته ـ في هذه الحادثة المشتركة ـ تجاه «بلدوين» فقط دون «تانكريد» . وقد تتبعت ـ بشكل رئيسي ـ المصادر اللاتينية «الصليبية» المعاصرة وهي كتابات المؤرخين «فوشيه الشارتري» ـ المؤرخ النورماني المجهول صاحب كتاب «الجستا» والمؤرخ ريمون داجيل ، وذلك لمقارنتها بما كتبه «وليم الصوري» حتى أتحرى المصداقية .

أولاً ـ «جودفري» أول حاكم صليبي لبيت المقدس

قاد «جودفري» دوق اللورين الأدنى ولوثارنجيا قواته ـ في الخامس عشر من أغسطس عام 1096م ـ في رحلة حج كما يسميها «وليم الصوري» . وقد انضم إلى قواته رجال من ذوي المكانة السامية كما يصفهم «وليم» ، مثل «بلدوين» دي منس كونت هينولت ، ولورد هيج كونت سنت بول ، وجراي كونت جارنييه ، ورينار كونت نول ، وبلدوين دي بورج أحد أقارب الدوق «جودفري» ، وهنري ديش وغيرهم . وسارت قوات «جودفري» عبر النمسا ثم بلاد المجر .

ثم يسرد «وليم الصوري» تفاصيل السفارة التي أرسلها «جودفري» إلى ملك المجر وكانت بزعامة «جودفري» ديش ، ويهمنا منها ما يتصل بنجاح دبلوماسية «جودفري» في كسب ثقة ملك المجر ، وكيف توصلا إلى حل وسط لتسهيل مرور قوات «جودفري» نحو بيزنطة بعد تقديم رهائن إلى ملك المجر وأهمهم «بلدوين» شقيق الدوق نفسه ، وكيف استطاع الطرفان أن يحلا أزمة الثقة نتيجة لتهور قوات بطرس الناسك ، التي أحدثت خرابا في إحدى مدن المجر

وهي مدينة نيش ، وذلك قبل عدة أشهر من قدوم قوات «جودفري»[7] .

واجتازت قوات «جودفري» ولاية «داكيا» التابعة لمملكة البلغار حتى بلغ مدينة فيليبو بوليس ، حيث وصلته أخبار عن احتجاز الإمبراطور البيزنطي «ألكسيوس كومنين» لـ«هيج» شقيق «فيليب» ملك فرنسا وأصحابه . وهُنا يرينا «وليم الصوري» شدة حرص «جودفري» على إطلاق سراح هيج ، فيقول «فأرسل على جناح السرعة وفي لحظته رجلاً من قبله إلى الإمبراطور ، ولاحقه بالرسل ملحاً عليه أن يطلق هؤلاء الرجال ، ويلومه على ما أنزله بهم وهم الذين وهبوا أنفسهم لرحلة الحج نفسها ، لكنه سجنهم من غير جرم ارتكبوه . وعندما بلغت قوات «جودفري» أدرنة ورجع رسله إليه فأخبروه برفض الإمبراطور رجاءه ، قرر «جودفري» نهب الإقليم حتى يضطر الإمبراطور لإطلاق سراح هيج وأصحابه ، وفعلاً أتت إجراءات «جودفري» بنتيجة إيجابية بقبول الإمبراطور إطلاق سراح هيج وأصحابه . ويصف «وليم الصوري» فرحة «جودفري» بإطلاق سراح هيج وأصحابه وحفاوته بهم ، فيقول «فاستقبلهم الدوق استقبالاً يفيض بالود ، وحباهم بما هم أهل له من التعظيم ، واستبقاهم معه بعض الوقت مسبغاً عليهم عطفه ، ومواسيهم مواساة الأخ لإخوانه يشاركهم آلامهم التي تحملوها ظلماً»[8] .

ويصف «وليم» «جودفري» ـ دوق اللورين الأدنى وصاحب بويون ـ بالشجاعة ، فعندما واجه «جودفري» دبّاً مفترساً قرب «أنطاكية» الصغرى الواقعة في إقليم بيسيديا قام «جودفري» بمصارعة هذا الدب والانتصار عليه ـ ويصف «وليم» شجاعة «جودفري» وصفاً فيه مبالغة كبيرة ، فجودفيري يُضطر إلى الترجل عن فرسه ثم يصارع الدب ، فيرتقى الدب على صدر «جودفري» ، ثم يقوم «جودفري» بشجاعة وجرأة غريبة فيستل سيفه بيمينه ، فيحتضن الدب بشماله ، فيغمد سيفه في جنب الدب فيصرعه ، ثم ينتج عن هذا الصراع جرح خطير في ساق «جودفري» ، حيث أنجده جنده ، وقاموا بعلاجه[9] . إن هذا المشهد الذي يصفه «وليم» بشيء من التفصيل فيه كثير من الإطراء لجودفري ؛ فهو المحارب الباسل كما يصفه «وليم» ، كما أن «وليم» يؤكد أن هذه الحادثة ـ

التي انفرد بها «وليم» ـ فيها إطراء لجودفري البطل والمنقذ والمصارع المنتصر على الدببة .

ثم يثني «وليم» على «جودفري» وما اتصف به من شجاعة في مهمة مواجهة قوات «أنطاكية» المسلمة ، فقد كان الصليبيون آنذاك يحاصرون «أنطاكية» ، وذلك في الفترة ما بين أكتوبر 1097م حتى يونيو 1098م . وحدث أن قدمت في مارس 1098م معونة من جنوة إلى القوات الصليبية عبر ميناء «السويدية» ـ الواقع على بعد ثمانية عشر كيلو متراً جنوب غربي «أنطاكية» ، فوجه ياغي سيان ـ والي «انطاكية» المسلم ـ قوات كبيرة ، فألحقت بقوات الصليبيين ـ التي يقودها «بوهيموند» صاحب «تارنتو» و«ريمون» كونت «تولوز» هزيمة كبيرة . فكانت مهمة «جودفري» منع قوات المسلمين العائدة إلى «أنطاكية» من دخول المدينة المحاصرة ، وذلك عبر بوابة جسر الحديد الواقعة في جنوب غربي المدينة . ويصف «وليم» ما حققه «جودفري» بقوله : «وكانت فرصة كبيرة للاستيلاء على المدينة ذلك اليوم ـ ولولا دخول الليل ـ الذي حسدنا على أمجادنا وانتصارنا لانتهى حصار «أنطاكية» من غير شك في هذا الوقت . ويقدر «وليم» خسارة المسلمين بألفي رجل ، حتى إنه يصف نهر العاصي ـ لكثرة دماء المسلمين فيه ـ بأنه تحول إلى سبيل جارف من الدماء ، ويصف «وليم» شجاعة «جودفري» في هذه المعركة فيقول : «كان ما قام به من العمل أمراً باهراً خالداً ، ومأثرة زادته إجلالا في نظر الجيش كله ؛ إذ اندفع بما طبع عليه من جرأة ، فكان يضرب الضربة الواحدة يقطع بها رؤوس أكثر من فارس مدرع ، ثم قطع بشجاعة فارساً آخر ـ لم يمنعه ما عليه من زرد الحديد ـ من أن يصيبه بضربة قطعته نصفين . . . فبعث هذا المنظر العجيب الخوف والدهشة في نفوس كل من شاهدوه ، ولم يعد خبر هذا الأمر العجيب خافياً على أحد ، وتناقلته الألسن ، فشرّق وغرّب»[10] .

وخلال فترة إقامة الصليبيين في «أنطاكية» قبل توجههم للاستيلاء على «بيت المقدس» ، جاءته رسل من صاحب قلعة «أعزاز» ـ الواقعة على بعد

حوالي ثلاثين ميلا شمال غربي حلب ـ طالبين التحالف مع «جودفري» ضد سيدهم الملك رضوان صاحب حلب . وقد ألح الرسل في طلب التحالف ، وأكدوا صدق تحالفهم وتبعيتهم الإقطاعية لجودفري . ويهمنا من هذا الموضوع أن «وليم الصوري» يصور قبول «جودفري» لهذا التحالف كأنه دليل على حسن خلق «جودفري» وطيب معدنه فيقول : «وأتت هذه الكلمات أكلها ، وحركت نفس ذلك الرجل المبجل ، فوثق علاقات المودة بصاحب قلعة «أعزاز» وأظله بعطفه»[11] . وكان الأولى بوليم الصوري أن يصف قبول «جودفري» هذا التحالف بأنه فرصة جيدة له لتفتيت المقاومة المسلمة في حالة ضرب الصليبيين حصارهم على «بيت المقدس» ، فسوف ينشغل رضوان عن «بيت المقدس» في ترتيب أمور مملكته وإخضاع الخارجين عن طاعته كصاحب «أعزاز» . وربما يقول قائل : إن «بيت المقدس» كانت خاضعة آنذاك للفاطميين وليس لرضوان ، فنقول : «إن بيت المقدس» لها قدسية خاصة عند جميع المسلمين ؛ فلا نستبعد وقوف رضوان إلى جانب الفاطميين للدفاع عنها ، كما أن رضوان نفسه قد أعلن تبعيته للفاطميين لمدة قصيرة أثناء اشتداد خلافه مع أخيه دقاق ملك دمشق ، وذلك قبل قدوم الحملة الصليبية بفترة قصيرة .

وأمام إلحاح عامة الفقراء من الصليبيين وتهديداتهم ، وبخاصة بعد أن هدموا أسوار معرة النعمان ـ على بعد خمسة وأربعين كيلومتراً جنوب غربي حلب ـ بعد استيلاء الصليبيين عليها واختلاف «ريمون» كونت «تولوز» و«بوهيموند» أمير تورنتو على ملكيتها ، اضطر القادة الصليبيون إلى النزول على رغبتهم للزحف نحو «بيت المقدس» ، فزحف «ريمون» كونت «تولوز» وروبر كونت «نورماندي» و«تانكريد» بقواتهم في الخامس عشر من يناير سنة 1099م ، على حين تأخر عنهم «جودفري» حتى بداية شهر مارس بعد ضغط شديد من الصليبيين المقيمين في «أنطاكية» . وهنا لا نرى «وليم الصوري» يلوم «جودفري» على ذلك بل يكتفي بقوله : «وأقبل شهر مارس فاقترب اليوم المقسوم لمتابعة رحلة الحج ، وإذ ذاك شرع من كان قد تخلف في «أنطاكية» من الصليبيين في الضغط الشديد على الزعماء لحملهم على بدء السفر ، وراحوا يلحون على

«جودفري» دوق اللورين ـ وروبر كونت فلاندرز ـ والقائد الآخر أي «بوهيموند» أن يتهيأوا للخروج وقيادة الناس» . وقد عرض «وليم الصوري» بتأخر «جودفري» عند ذكر ثناء عامة الصليبيين على القادة الذين زحفوا قبلهم نحو «بيت المقدس» مثل ريمون كونت «تولوز» ـ وروبر ـ كونت نورماندي ـ و«تانكريد» ابن أخ «بوهيموند» أمير «أنطاكية» .

ويصف «وليم» تأثير الحجاج الصليبيين على القادة المتخلفين في «أنطاكية» ، فيقول : «وقد أثارت هذه الكلمات وأمثالها همة القادة الذين ذكرناهم حالاً ، فحركتهم للعمل ، فأخذوا في إعداد متاعهم وكل ما يحتاجه سفرهم هذا ، واستصحبوا معهم جميع الفرسان والجند والمشاة»[12] .

كما يمتدح بطولة «جودفري» في أثناء حصار الصليبيين لمدينة «بيت المقدس» عام 1099م الذي دام خمسة أسابيع ، فيذكر أن «جودفري» كان يخرج شخصيّاً مع الخشابين لقطع الأخشاب لصنع آلات الحصار الدبابات ، كما يمتدح حماسة قوات «جودفري» وكفاءتها أثناء الحصار ، بالرغم من قلة أمواله وعماله المهرة في فنون صنع آلات الحصار[13] . والغريب أن «وليم الصوري» يمتدح «جودفري» ، الذي أحدث مذبحة مروعة عندما استولى الصليبيون على «بيت المقدس» ، فيقول «وليم» عن زعماء الصليبيين وخاصة «جودفري» : «وكان الزعماء قد شقوا طريقهم وسط المدينة سالكين طرقاً مختلفة ، ومرتكبين من المذابح ـ أثناء تقدمهم ـ ما لا يمكن وصفها ، ونهج نهجهم جمع من الناس الظامئين إلى دماء العدو ، والذين لا قصد لهم سوى التدمير»[14] .

وعندما يتحدث «وليم الصوري» عن قضية اختيار حاكم علماني لبيت المقدس ، نراه يقف إلى جانب القادة العلمانيين ضد رجال الدين الذين رأوا أن اختيار بطرك للمدينة المقدسة يجب أن يسبق اختيار حاكم علماني لها ، ورفضوا قبول أي قرار من القادة العلمانيين دون الرجوع إليهم . وعموماً لا يهمنا هنا كثيراً تفاصيل الخلاف بقدر ما يهمنا موضوعية «وليم الصوري» ، الذي وقف متحيزاً إلى جانب القادة العلمانيين وضد رجال الدين الذين يصفهم بأنهم قدموا

مصالحهم الذاتية على مصالح عيسى المسيح ، بل إنه اتهم وقوف أسقف كلابريا إلى جانب «أرنولف» ـ الذي يصفه «وليم» بمذموم السيرة ـ ليعين أسقفاً لبيت المقدس بأنه كان نابعاً من المصلحة الشخصية لهذا الأسقف ، حيث وعده «أرنولف» بتنصيبه أسقفاً لكنيسة بيت لحم . وعندما اتفق القادة ـ في أثناء اجتماعهم لاختيار أحدهم حاكماً لبيت المقدس ـ على ذكر محاسن القادة المرشحين من أتباعهم الإقطاعيين ومساوئهم ، لم يذكر «وليم» إلا حادثة واحدة تثبت مدى تحيزه لجودفري ؛ حيث ذكر سلبية شغف «جودفري» بزيارة الكنائس وإدامته الصلاة فيها حتى تضايق أتباعه من طول زيارته لإحدى الكنائس ، فعندما سمع القادة الصليبيون هذه الشكاية ضد «جودفري» من أتباعه قالوا «سعيد والله ذلك الرجل الذي له كل هذه الصفات الحميدة ، والذي تكون نقيصته فضيلة يتفاخر بها الآخرون»[15] . وبالرغم من تحيز «وليم الصوري» لجودفري ضد منافسه الأساسي في حكم «بيت المقدس» وهو «ريمون» «كونت تولوز» ، فإنه لم يذم «ريمون» ، بل إنه وقف موقفاً متوازناً من عدم قبول «ريمون» تسليم برج داود ، الذي تسلمه «ريمون» من أهالي «بيت المقدس» المسلمين بعد الاستيلاء عليها ؛ حيث يقر «وليم» أن الحل الوسط الذي توصل إليه الطرفان ، وهو تسليم البرج لأسقف البارة حتى يفصل القادة الصليبيون في أمر البرج ، إلا أن «وليم» يؤكد أن أسقف البارة سلم البرج مرغماً لجودفري قبل وصول القادة إلى حل[16] ، وواضح جداً أن الإرغام جاء من «جودفري» .

وحدث أن ادعى أحد أتباع «جودفري» بدعوى قضائية ضد سيدة بتهمة الاستيلاء على أملاكه الخاصة ، وكان هذا التابع من ذوي قربى «جودفري» . وقرر القاضي ـ كما جرت أعرافهم القضائية ـ أن يتبارز الخصمان أمام الناس ، فحث كبار رجال مملكة «بيت المقدس» سيدهم «جودفري» أن يمنع هذه المبارزة الشخصية بين الخصمين ، وتمت المبارزة على مرأى من الناس ، حيث تهشم سيف «جودفري» ، وطالبه النبلاء بوقف المبارزة ، ولكنه رفض وأتمها وانتصر على خصمه وعفا عنه ـ وهنا يصف «وليم» تعجب الناس من «جودفري» ، فيقول : «فتملكهم الإعجاب بشجاعة الدوق الفائقة وأذهلتهم رحمته التي لا

تقاس بها رحمة ، وراحوا يرتبون أمر الصلح ، وهكذا انتهت المبارزة إلى نهاية شريفة ، خرج منها الدوق منصوراً ، واستحق في نظر الجميع ثناء لا يبلى»[17] .

ويمتدح «وليم» جهود «جودفري» بخصوص منحه رجال الدين الكنسيين والديريين الامتيازات الكثيرة «في خدمة الرب للأماكن المقدسة ؛ سعياً وراء خلاص روحه ، كما حمله تواضعه ـ حين ولي السلطة ـ على رفض ما جرت به عادة الملوك من أن يتوج بتاج من الذهب في المدينة الطاهرة ، التي توج فيها مخلص الجنس البشري ـ يعني المسيح عليه السلام ـ من أجل خلاصنا» . ويعيب «وليم الصوري» على المؤرخين الذين يرفضون إدراج «جودفري» ضمن ملوك مملكة «بيت المقدس» ، بل يراه «كان من أحسن الملوك قاطبة ، وكان هادياً وقدوة لغيره . والحق أنه لا ينبغي لأحد ما أن يظن أن هذا الدوق المؤمن ازدرى هدية تكريس الكنيسة وقربانها المقدس ، ولكنه كان يحتقر زهو الدنيا وباطلها الذي يتعرض له كل مخلوق ، فأملى عليه تواضعه أن يرفض التاج الذي مآله الفناء ، طمعاً منه في أن يحصل فيما بعد على تاج لا زوال له أبداً»[18] .

وعندما تحدث «وليم الصوري» عن حملة الوزير الفاطمي الأفضل . الذي قاد قوات كبيرة وحشدها قرب عسقلان ، وكيفية مواجهة القادة الصليبيين هذه الحملة بنجاح ، حتى انتهت بهزيمة مخزية للأفضل ـ في الحادي عشر من أغسطس عام 1099م ـ دون أن يقع قتال يذكر ، ولا يهمنا ذكر تفاصيل هذه الحملة بقدر ما يهمنا تعرُّف موضوعية «وليم الصوري» ؛ فمن خلال سرد الأحداث يظهر «وليم» جودفري وكأنه صاحب الكلمة العليا بين القادة الصليبيين ، فيصف «وليم» انضمام قوات استلس ـ أخي «جودفري» ـ و«تانكريد» بنابلس لقوات «بيت المقدس» «انصياعاً لأمر الدوق جودفري» ، وهذا «ريمون» كونت «تولوز» ـ الذي كان خصماً عنيداً لجودفري قبل أيام ـ نراه يقود قواته لتنضم للقوات الصليبية . ويرجع «وليم الصوري» هزيمة القوات الفاطمية وفرارها المشين دون قتال حقيقي إلى ظن الفاطميين أن القوات الصليبية كانت كبيرة نظراً لمصاحبة قطعان الماشية التي غنموها من الفاطميين بدون تخطيط من الصليبيين[19] . وقد أسلفنا الحديث عن الخلاف الذي نشب بين

القادة العلمانيين ورجال الدين حول من تكون له السيادة في بيت المقدس ، فقد نصب رجال الدين أحدهم وهو «أرنولف» بطركا لبيت المقدس ، وذلك بعد تنصيب «جودفري» حاكماً لبيت المقدس دون استشارة لرجال الدين ، ثم دبر انقلاباً دينياً على «أرنولف» ونصب بدلاً منه «دامبرت» رئيس أساقفة البيازنة . ويظهر أن هذا كان بتدبير من «جودفري» و«بوهيموند» أمير «أنطاكية» و«بلدوين» كونت «الرُّها» . ويهمنا من هذا الموضوع ، هو أنه وقعت فتنة بين «جودفري» و«دامبرت» بتحريض من مثيري الفتنة ؛ فقد طالب البطرك «دامبرت» أن يسلمه «جودفري» مدينة «بيت المقدس» كلها وكذلك يافا . واضطر «جودفري» أن يتنازل عن ربع يافا ، كما تنازل عن ربع «بيت المقدس» للبطرك ، على أن يستغل «جودفري» باقي المدينة إقطاعاً إلى أن يتمكن «جودفري» من الاستيلاء على مدينة أخرى حتى تكون عاصمة لحكمه . وهنا يطرح «وليم الصوري» تساؤلاً في دهشة عن دوافع البطرك في إثارة هذه المشكلة ضد «جودفري» ، ثم يورد «وليم» سردا تاريخيّاً مطولاً حول ملابسات تبعية ربع مدينة «بيت المقدس» لبطرك «بيت المقدس» منذ حكم الفاطميين في أثناء حكم خليفتهم المستنصر في سنة 1063م ، وكأن هذا السرد التاريخي المفصل حول هذه الملابسات نوع من التبرير لحصول البطرك «دامبرت» على «بيت المقدس»[20] .

وتوفي «جودفري» في الثامن عشر من شهر يوليو عام 1100م بمرض شديد ، ولم نر «وليم» يفصل من جديد في شمائل «جودفري»[21] .

ثانياً ـ «بلدوين» كونت «الرُّها» شقيق الدوق «جودفري»

اشترك «بلدوين» ـ شقيق الدوق «جودفري» ـ في الحملة الصليبية الأولى ، وصحب الحملة عندما حاصرت نيقية في 1097م ، ثم تسلم البيزنطيون المدينة ، كما شارك في حملة انتصرت على قوات قلج أرسلان المسلمة في معركة ضوريليوم في الأول من يوليو 1097م ، ثم أخذت بعض فئات الجيش الصليبي تنفصل عن الجيش الأساسي ، فقام «تانكريد» ـ ابن أخت «بوهيموند» ـ بالاستيلاء على مدينة «طرطوس» صلحا ، وهي تقع على بعد عشرين ميلاً

جنوب شرقي أظنة . ولم يذكر «وليم الصوري» ما إذا كان استيلاء «تانكريد» على «طرطوس» بتواطؤ مع حاميتها التركية كما يؤكد ذلك المؤرخ فوشيه ، ثم قدم «بلدوين» بقواته إلى «طرطوس» فاضطر «تانكريد» إلى الخروج من المدينة وتسليمها لبلدوين الذي يتفوق على قواته كثيراً . وفي تلك الأثناء أرسل «بوهيموند» قوة تقدر بثلاث مئة مقاتل ـ ظنا منه أن «طرطوس» بيد «تانكريد» ـ فلم يسمح لها «بلدوين» بالدخول ، وتركها تبيت خارج أسوار «طرطوس» ، فباغتت قوات مسلمة هذه القوات وقتلتهم وهم نائمون عند سور المدينة ، فغضب جنود «بلدوين» لتصرف قائدهم الذي أدى إلى قتل إخوانهم الصليبيين عند سور المدينة . ويقف «وليم» هنا موقفاً متردداً من تصرف «بلدوين» هذا ؛ فتارة يُدينه ، وتاره يبرر تصرفه . فيقول : «وراح هو ـ أي «بلدوين» ـ يبرئ ساحته عندهم ـ أي عند جنوده ، مقسماً لهم بأن السبب الوحيد الذي حمله على إغلاق أبواب المدينة في وجه الحجاج ـ أي قوات «بوهيموند» تلك ـ هو أنه كان قد وعد وعدا لا حنث فيه ألا يسمح لأحد بدخولها حتى يصل الدوق (أي أخوه «جودفري») ، كما أن كلماته المرائية ، وألفاظ الاستعطاف التي كان لا بد منها في مثل هذا الموقف ، والتي قالها بعض أشرافهم فعلت فعلها وأفلحت ، فهدأت من ثائرة الناس بعض الهدوء وتراضوا فيما بينهم»[22] . ويصف وليم «وليم» هذا التصرف في موضع آخر بأنه «وقاحة متناهية»[23] .

إلا أن «وليم» يحاول الدفاع عن تصرف «بلدوين» ، فيقول : «ولما كان «بلدوين» قد أخطأ بناء على ما أشار به غيره عليه أكثر من أن يكون خطؤه من تلقاء ذاته ، ولما كان هذا المسلك بتحريض من سواه وليس من طبعه ، فقد سامحه الجميع ـ أي جميع قادة الصليبيين ـ واسترد ثقتهم به . والحق أنه كان رجلاً موضع الإطراء من كل الوجوه ، كما أنه لم يؤخذ عليه قط بعدئذ شناعة تزرى به كهذه الشناعة»[24] . لقد ذكر «وليم» سابقاً أن منع «بلدوين» لتلك القوات جاء بناء على قسم أقسمه على نفسه بعدم السماح لأية قوة بدخول المدينة حتى يصل الدوق «جودفري» ، على حين يبرر «وليم» لبلدوين هذا التصرف ـ بعد تصاعد نغمة الحنق ضده ـ «بأنه بتحريض من غيره» ، وهكذا

يحاول «وليم» أن ينقل ملابسات هذا الحدث بكل تناقضاته ، حتى يبرئ نفسه من التحيز ، ويعطي للقارئ أكثر من وجهة نظر ، وإن صرح بتحمل «بلدوين» مسؤولية هذا التصرف الذي وصفه بأنه «وقاحة متناهية» .

ويذكر «وليم» موقفاً آخر لبلدوين فيه إثارة لشبهة تخاذل ونكران للجميل تجاه متبنيه حاكم «الرُّها» ثوروس الأرمني . فقد طلب ثوروس من «بلدوين» في فبراير 1098م القدوم بقواته لمساندته ضد المسلمين ، فقدم «بلدوين» بقوات قليلة وأحسن ثوروس استقباله ، وتبناه وأشركه في الحكم . ثم قام سكان المدينة الأرمن بثورة في التاسع من مارس 1098م ضد حاكمهم ثوروس ، فطلب ثوروس العون من متبنيه ، فلم يقم بواجب النجدة ، بل وقف موقف المتفرج ، فذهب ثوروس ضحية لهذا التخاذل من «بلدوين» . ولم يذكر «وليم» الصوري شبهة تآمر «بلدوين» ضد متبنيه وتزعمه لهذه الثورة ؛ حيث اغتصب حكم «الرُّها» من متبنيه ، بل يصف الحادثة وكأن «بلدوين» لا حول له ولا قوة في نجدة متبنيه وصاحب الفضل عليه ـ فيذكر ما نصه : «وعلى الرغم من أن «بلدوين» سعى سعياً صادقاً إلى حماية الحاكم ثوروس وصرف كل أذى نزل به على يد المواطنين ، وبالرغم من أنه بذل قصارى جهده لثنيهم عما اعتزموه ـ أي قتل ثوروس ـ إلا أنه سرعان ما تبين له فشل محاولاته وذهابها أدراج الرياح»[25] . ولم يذكر ماهية هذه المحاولات التي قام بها «بلدوين» لإنقاذ ثوروس ، ويبدو أن «وليم» أغفل حقيقة تخاذل «بلدوين» عن متبنيه ونكرانه لجميله بإشراكه في حكم «الرُّها» .

ويوافق المؤرخ «فوشيه الشارتري» ـ القسيس الخاص لبلدوين ـ على وصف «وليم» ، إلا أنه يصف تآمر الأرمن بمؤامرة شريرة لذبح أميرهم بسبب كرههم له ، كما لا يحمل «بلدوين» أية مسؤولية تجاه هذ المؤامرة . وعموماً فإن المستفيد الأول من مقتل ثوروس هو «بلدوين» الذي أجمع الثوار الأرمن على تنصيبه حاكماً عليهم ، وبهذا كان هذا الإجراء بداية تأسيس أول كونتية صليبية في الشرق قامت في مارس 1098م ، على حين كانت قوات الحملة الصليبية

الأولى تحاصر «أنطاكية» حصاراً شديداً وتعاني من مشكلات عدة لا مجال هنا للحديث عنها ، ومن هذه المشكلات قلة الأطعمة . وهنا يثني «وليم» على كرم «بلدوين» كونت «الرُّها» لمساعدة جيش الصليبيين ذاك ، فيقول : «فتفطر قلبه ـ أي «بلدوين» بالأسى الصادق ، وعزم على إمدادهم بضرورات العيش من فائض أمواله الخاصة التي أنعم بها عليه ، فكانت عطاياه السخية من الذهب والفضة والأقمشة الحريرية والجياد الصافنات وغير ذلك من غال وثمين بلسما داوى ظروف كل زعيم ، ولم يقتصر كرمه على كبارهم فحسب ، بل تعداه إلى كثير من عامة الناس ، مما أكسبه ميل الجميع وحبهم إياه . .»[26] . ويذكر «وليم» أن قوات كربوقا المسلمة ـ التي جاءت منجدة لأنطاكية المحاصرة ـ قامت قبل وصولها لأنطاكيا بمحاصرة «الرُّها» لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم غادرتها نحو «أنطاكية» . والجدير بالذكر أن حصار الصليبيين لأنطاكية بدأ في أكتوبر 1097م ، أما حصار كربوقا للرها فكان أوائل يونيو 1098م ، أي بعد بداية حصار «أنطاكية» بحوالي ثمانية أشهر ، وهنا يقع «وليم» في مطب ، وهو محاولته تبرير عدم مشاركة «بلدوين» شخصياً بقواته لمساندة الصليبيين المحاصرين لأنطاكية ، فيقول : «وكان توقف جيش الأعداء أمام «الرُّها» هو السبب في عدم استطاعة «بلدوين» أن يكون حاضراً أثناء حصار «أنطاكية» ، كما كان السبب في خلاص قومنا الذين كان لا بد أن يتحرج موقفهم لو أن كربوقا زحف مباشرة على «أنطاكية» ، وأخذها قبل استيلاء الصليبيين عليها ، ولكن شاءت نعمة الرب أن تقع «أنطاكية» ـ أي بأيدي الصليبيين ـ قبل وصول المارقين (يقصد المسلمين) ، وإلا كان من الصعب على الصليبيين أن يقفوا في طريق كربوقا»[27] .

وهنا يبدو جليّاً تحيز «وليم» لبلدوين ووضعه التبريرات البعيدة عن الواقع لعدم مشاركة «بلدوين» في الحملة الصليبية المحاصرة لأنطاكية ، فلا يعقل أن حصار كربوقا للرها لمدة ثلاثة أسابيع في شهر يونيو 1098م ، هو سبب تخاذل «بلدوين» وتخليه عن مساعدة الصليبيين الذين مرّ على حصارهم لأنطاكية آنذاك ثمانية أشهر . وإذا كنا نعذر «بلدوين» عندما كان مشاركا لثوروس في حكم «الرُّها» وهي فترة شهر واحد ، أي شهر فبراير 1098م ، فإننا لا نستطيع أن نعذره

منذ التاسع من مارس 1098م عندما استقل بحكم «الرُّها» ، وذلك بعد مقتل ثوروس في المؤامرة التي سبق ذكرها .

وفي خلال المدة ما بين استيلاء الصليبيين على «أنطاكية» حتى بداية زحفهم نحو «بيت المقدس» ، التي استغرقت ستة أشهر ، قام كثير من أشراف الصليبيين وعامتهم بالتوجه نحو «الرُّها» طلباً لإحسان حاكمها «بلدوين» . ويمتدح «وليم الصوري» صنيع «بلدوين» تجاههم ، فيقول : «فأحسن الكونت لقاءهم ، وحباهم بآلائه ، ولم يدخر وسعا ولا قصر في عطفه عليهم طوال إقامتهم في رحابه ، ثم ردهم في النهاية إلى إخوانهم وقد امتلأت نفوسهم بالغبطة ، وأيديهم بالعطايا الجمة»[28] .

وقد تزايد توافد الصليبيين على «الرُّها» ، مما أدى إلى ضيق أهالي «الرُّها» بالأرمن الذين أوصلوا «بلدوين» إلى السلطة بعد تآمرهم على سيدهم ثوروس كما سبق ذكره . ويبدو أن «بلدوين» أخذ يقرب هؤلاء الصليبيين إليه حتى أهمل الأرمن ، ولا سيما قادتهم الذين كانوا أهل مشورته . ويزعم «وليم الصوري» أن هؤلاء الأرمن أخذوا في التآمر مع الأتراك ضد «بلدوين» لقتله أو طرده من «الرُّها» ، كما يزعم «وليم الصوري» أن «بلدوين» تأكد من تآمرهم ضده ، فيقول : «فلما تقصى الكونت الخبر وتجمعت بين يديه البراهين ـ التي لا تجحد عن صدق هذا المشروع ـ بعث قوة كبيرة من خاصة رجاله للقبض على المتآمرين . . ، وأدت اعترافاتهم إلى كشف جوانب القضية ، وإذ ذاك أمر بسمل عيون زعماء المؤامرة ، وحكم على من دونهم جرما بالنفي من المدينة ومصادرة أملاكهم ، أما غير هؤلاء وهؤلاء فقد تفضل بالإذن لهم بالمقام في «الرُّها» مع إلزامهم بدفع غرامة مالية ضخمة صادر بها كل ما ملكته أيديهم ، وجعله ملكاً خالصاً له لا يشاركه فيه مشارك ، واستطاع الكونت بهذه الوسيلة أن يحصل على قدر من الذهب بلغ عشرين ألف قطعة ، سخا بها على ضيوفه زعماء الصليبيين الذين أدت مساعدتهم إياه إلى بسط سيطرته على البلاد والقلاع المجاورة»[29] . وكان الأولى بوليم الصوري أن يربط بين تآمر «بلدوين» مع الأرمن

ضد سيده ثوروس وبين تآمره الآن مع الصليبيين ضد حلفائه السابقين من الأرمن ؛ فبلدوين ذو خبرة كبيرة بالتآمر ، وهو اليوم يتخلى عن من وقف معه في تآمره ضد ثوروس حاكم «الرُها» الأرمني .

كذلك لم يشترك «بلدوين» في حصار الصليبيين لبيت المقدس حتى استولوا عليها في حصار امتد أربعين يوماً . ويبدو أن «وليم الصوري» تعمد عدم ذكر ذلك حتى لا ينتقص من قدر «بلدوين» ، وقد أورد «فوشيه الشارتري» ذلك إلا أنه يبرر بلباقة تخلف «بلدوين» وكذلك «بوهيموند» عن حصار «بيت المقدس» فيقول : «إن هذين الاثنين ـ اللذين جاءا بعد رفاقهما ـ لا تنقصهم الشجاعة بالرغم من قدومهما متأخرين (أي قدومهما بعد الاستيلاء على البيت المقدس)»[30] .

وجاء رسول من «بيت المقدس» فأخبر «بلدوين» نبأ وفاة أخيه «جودفري» حاكم «بيت المقدس» : ويؤكد «وليم الصوري» أن أهالي «بيت المقدس» ، هم الذين استدعوا «بلدوين» ليخلف أخاه ويسمي هؤلاء بالقوم . فقام «بلدوين» بإجابة طلبهم وتوجه لبيت المقدس لاستلامها ، ثم يناقض «وليم» نفسه ، فيقول : «إن القادة الصليبيين لم ينفذوا وصية «جودفري» التي توجب تسليم المدينة إلى بطرك «بيت المقدس» في حالة وفاة «جودفري» دون وريث ، أي ابن يخلفه في حكم «بيت المقدس» . ويخفف «وليم» من وقع هذا الأمر ، ويقول : «إن من تزعم ما يسميهم الطائفة المثيرة للفتن رجل يُدعى كونت جارنييه دي جراي»[31] . وسوف أفرد الموضوع الخامس من البحث عن «بلدوين» الأول ملك لبيت المقدس .

ثالثاً – «بوهيموند» أول أمير صليبي لأنطاكية

قاد «بوهيموند» ـ في الحملة الصليبية الأولى ـ قوات نورمانية تقدر بحوالي أربعة آلاف مقاتل ، وعموماً كان له دور كبير في الحملة الصليبية الأولى ، وبخاصة عندما كانت القوات الصليبية تحاصر «أنطاكية» بين أكتوبر

1097م حتى يونيو 1098م . وقد اعتاد «وليم» مدح «بوهيموند» بالرغم من أن «بوهيموند» نورماني ، على حين كان «وليم» من أصل فرنجي . ولكن هناك ملاحظة ، وهي أن المدح الذي تلقاه «بوهيموند» من «وليم» أقل كثيراً من المدح الذي تلقاه قادة الفرنجة الآخرين كجودفري وشقيقه «بلدوين» . هذا إذا أخذنا في الحسبان أن قوات بوهيموند كانت قليلة بالمقارنة إلى قوات قادة الفرنجة ، كما أن أعمال «بوهيموند» وبطولاته عند حصار الصليبيين لأنطاكية وكذلك دوره الرئيس في الهجوم الأخير والناجح على المدينة ، كل هذه الأعمال لم تحظ بالإطراء الكبير عند «وليم» . واعتاد «وليم» تبرير أعمال القادة الصليبيين العدوانية ، فعندما قامت قوات «بوهيموند» ـ في طريقها إلى القسطنطينية ـ بنهب مدينةكاستوريا التابعة للبيزنطيين ، يبرر «وليم» هذا التصرف لعدم عقد سكان تلك المدينة سوقا لقوات «بوهيموند» فاضطرت إلى النهب ، ومع ذلك عاتب «وليم» «بوهيموند» على هذا التصرف ، فيقول «مما أدى إلى خسارة للأهالي الذين نظروا إليهم ـ أي قوات «بوهيموند» ـ نظرتهم للأعداء»[32] .

يمتدح «وليم» فطنة «بوهيموند» وحذره في تعامله مع الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين ، فقد كانت هناك عداوة سابقة بينهما منذ محاولة روبر جويسكار ـ والد «بوهيموند» ـ احتلال البلقان وإقامة دولة نورمانية فيها . وقد اشترك «بوهيموند» نفسه في هذه المحاولة الجريئة ، ولكن ألكسيوس دحر قوات النورمان في لاديسا عام 1083م . وعندما وصلت قوات «بوهيموند» قرب القسطنطينية ـ عند مشاركتها في الحملة الأولى ـ أرسل ألكسيوس رسالة لبوهيموند يظهر فيها الود والاحترام له ، ويقدر مشاركته في المشروع الصليبي خدمة للرب . وهنا يصف «وليم» ردة فعل «بوهيموند» ـ «الذي يصفه بالرجل الفطن واللماح ، المدرك تمام الإدراك ما تنطوي عليه نفس الإمبراطور من الشر» ـ يصف ردة الفعل بأن فيها فطنة حيث يقول «وليم» : «كتم مشاعره (أي «بوهيموند») ، وأخذ حذره الشديد ، وأزجى إلى الملك ـ أي الكسيوس ـ آيات الشكر على ما أبداه من العطف والاهتمام بسلامته»[33] .

ونجحت القوات الصليبية في الاستيلاء على «أنطاكية» في 3 من يونيو

1098م بعد مؤامرة ربما حاكها نصارى «أنطاكية» المقيمون بها في أثناء حصارها . ولا يهمنا ذكر التفصيلات ، ولكن يهمنا موقف «وليم» من «بوهيموند» ؛ حيث أوكلت القوات الصليبية لبوهيموند مهمة الدفاع عن المدينة عندما قدمت قوات مسلمة ضخمة بقيادة كربوقا ، فحاصرت الصليبيين في «أنطاكية» بعد يومين فقط من استيلائهم عليها . ويرى ريمون داجيل أن سبب تسليم الزعامة لبوهيموند يرجع للتهديد التركي ولمرض «ريمون» كونت «تولوز» وهرب ستيفن كونت بلوا وشارتر ، كما يؤكد أن هذه الزعامة كانت محددة لمدة خمسة عشر يوماً . وعموماً لم يمتد حصار المسلمين للصليبيين كثيراً ، فلم يصبر الصليبيون أكثر من أسبوعين لنفاد أطعمتهم وترقبهم للموت جوعاً أو قتلاً بأيدي المسلمين ، فقرروا التفاوض مع كربوقا ، ولكن المفاوضات فشلت ، فقرروا القتال خياراً أخيراً وإلا ماتوا جوعاً . ويمتدح «وليم» حسن قيادة «بوهيموند» الذي تولى القيادة العامة بموافقة قادة الحملة ، فيصفه بما يلي : «فلم يحظ ـ أي «بوهيموند» ـ قط ليلا أو نهاراً بقسط من الراحة ، إذ كان يشغل وقته بالتجول في الشوارع والميادين ، لتطمئن نفسه ويهدأ باله من أنه ليس هناك من أحد متهاون في مهمته ، وليتأكد من عدم وجود أي فرصة للعدو لدخول المدينة عن طريق الخيانة»[34] . وتمكن الصليبيون أن يحققوا نصراً سهلاً على قوات كربوقا في الثامن والعشرين من يونيو وتمكن «بوهيموند» ـ بعد استتباب الأمور له في «انطاكية» وتنصيبه أميراً عليها ـ أن يضم إقليم قليقية ، مثل مدن طرطوس وأظنه والمصيصة وعين زربة . ويمتدح «وليم الصوري» هذا الإنجاز ، ويصف «بوهيموند» بأنه جعل من نفسه الأمير الأكبر على الإقليم كله[35] . ويرى ريمون داجيل أن موت المندوب البابوي ادهيمار في أغسطس من العام نفسه شجع على تشتت القادة الصليبيين بما فيهم «بوهيموند» الذي سيطر آنذاك على قليقية . وقد سبق أن تحدثنا عن طلب صاحب قلعة «أعزاز» التحالف من «جودفري» قبل توجه الصليبيين للاستيلاء على «بيت المقدس» . وقد أرسل «جودفري» إلى «بوهيموند» يطلب منه الدعم لفرض حصار على «أعزاز» وضمها للصليبيين ، فماطل «بوهيموند» في إجابة «جودفري» . ويرى «وليم الصوري» أن سبب

المماطلة يعود لغيرة «بوهميوند» من «جودفري»[36] ، وذلك فيما يبدو لأن «بوهيموند» يرى أنه الأولى بالتحالف مع صاحب «أعزاز» نظراً لاستقلاله في حكم «أنطاكية» القريبة من «أعزاز» ، كما أن «جودفري» لم يؤسس ـ حتى الآن ـ له كيانا يحكمه كما فعل «بوهيموند» أمير «أنطاكية» الصليبي . ولكن بعد إلحاح «جودفري» ، اضطر «بوهيموند» لإجابة طلبه .

وقرر «بوهيموند» مع من تأخر من قادة الصليبيين في «أنطاكية» متابعة بقية القوات الصليبية التي سبقتهم إلى الزحف نحو «بيت المقدس» ، وكان ذلك في مارس 1099م ؛ حيث تجمعت هذه القوات في اللاذقية ، وصحبهم «بوهيموند» أمير «أنطاكية» ، ولم يتابع «بوهيموند» مسيره معهم نظراً لحاجة «أنطاكية» له للدفاع عنها كما يقول «وليم الصوري» ، ورافقهم «بوهيموند» وجيشه حتى اللاذقية ، ولم يستطع مرافقتهم إلى ما بعدها . . .حتى لا يترك «أنطاكية» ـ التي استحوذ عليها عن قريب ـ من غير راع قوي . . يدفع عنها غائلة الأعداء»[37] .

وحدث أن طلب ـ في شهر يوليو عام 1100م ـ جبريل الأرمني ـ صاحب ملطية الواقعة بالجزيرة الفراتية من «بوهيموند» استلام مدينته والدخول تحت طاعته خوفاً من تهديد كمشتكين بن الدانشمند ؛ ففي أغسطس 1100م عبر «بوهيموند» بقواته نهر الفرات ، وعندما وصل إلى التلال التي تفصل ملطية من وادي إقسو ـ أحد فروع نهر الفرات ـ كمنت قوات كمشتكين بن دانشمند لقوات «بوهيموند» فهزمتها هزيمة ساحقة ، وقتل معظم الصليبيين وأسروا بما فيهم «بوهيموند» . ويرجع «وليم» سبب أسر «بوهيموند» إلى خطاياه . وحاول ابن الدانشمند الاستيلاء على ملطية ، إلا أن قوات الكونت «بلدوين» ـ كونت «الرُّها» ـ أجبرته على فك الحصار ، واستلمت المدينة وضمتها للرها وفقاً للشروط التي كان جبريل الأرمني اشترطها على «بوهيموند» قبل سقوطه في الأسر(38) . وسنذكر الآن حادثة وقعت بعد ذلك بأربع سنوات ، وهي حملة «بوهيموند» وبلدوين دي بورج ـ كونت «الرُّها» الجديد ـ للاستيلاء على حران ،

حيث سنرى تخاذل «بوهيموند» وتخليه عن «بلدوين» ، مما أدى إلى سقوط بلدوين دي بورج أسيرا بيد المسلمين . ولم يربط «وليم» بين هاتين الحادثتين ، ولكن لا يستبعد أن «بوهيموند» ظن أن مسألة أسره كانت بتآمر من الكونت «بلدوين» ، ولذا سنراه يتخاذل عن قريب كونت «الرُّها» وهو بلدوين دي بورج ، وهو الذي سيخلف «بلدوين» الذي تولى مملكة «بيت المقدس» أوائل عام 1101م .

وبعد أن حصل «بوهيموند» على حريته وأطلق سراحه بعد دفع فدية سنة 1104م ، قاد قوات «أنطاكية» مع قوات «الرُّها» بقيادة بلدوين دي بورج ، واتجهوا عام 1104م لاحتلال مدينة حران التابعة للمسلمين ، وهي على بعد خمسة عشر ميلا جنوب شرقي «الرُّها» ، واشتد حصار الصليبيين على المدينة وقرر أهلها تسليمها ، وهنا وقع خلاف بين «بوهيموند» وبلدوين دي بورج حول تبعية المدينة بعد تسليمها . ويصف «وليم» هذا الخلاف بالمسألة التافهة ، ويرجع ذلك إلى حصول الغيرة بينهما ، وأدى هذا الخلاف إلى تأخر تسليم المدينة ، حيث قدمت آنذاك نجدة إسلامية ، فزاد ذلك من شجاعة المدافعين عن المدينة وصبرهم واستبسالهم ، فخرجوا في فريقين متراصين ، واشتبكوا مع قوات الصليبيين اشتباكاً عنيفاً حتى فر «بوهيموند» و«تانكريد» من ساحة القتال قبل أن تحسم المعركة ، وسقط بلدوين دي بورج وقريبه جوسلين في أسر المسلمين ، واتجه «بوهيموند» إلى «الرُّها» ، حيث وافقه أهلها على تسلم «تانكريد» لأمر كونتيتهم حتى يُطلق بلدوين دي بورج من الأسر . ويذم «وليم» فرار «بوهيموند» و«تانكريد» ، فيقول : «ولم يحدث أبداً أن قرأنا قبل هذا الحادث أو بعده عن معركة بلغت من الشؤم ما بلغته هذه المعركة التي أسفرت عن مصرع رجال أبطال كهؤلاء الرجال ، ولا سمعنا عن مثل هذا القرار المشين الذي لحق بجيشنا»[39] . ولم يذكر «وليم» سبب فرار «بوهيموند» في هذه المعركة ، فلم تكن المعركة أعظم ولا أشد شراسة مما واجه القادة الصليبيين أمثال «بوهيموند» قبل عدة سنوات عند حصارهم لأنطاكية أو عند قتالهم لحملة كربوقا ـ صاحب الموصل ـ التي جاءت لنجدة «أنطاكية» ، وسبق الحديث عنها . ولربما كان الفرار

نكاية ببلدوين الذي أراد الاستئثار بحكم حران دون «بوهيموند» .

ويتفق «فوشيه الشارتري» مع «وليم الصوري» في وصف هزيمة حران بأنها «كارثة يفوق حجمها كل المعارك السابقة» ، كما يتفق فوشيه مع «وليم» على تخاذل «بوهيموند» و«تانكريد» وقواتهما في المعركة ، ويرجع فوشيه ذلك لتحاسدهم[40] . وبهذا نرى اتفاقاً كبيراً بين آراء كلا المؤرخين الصليبيين .

سبق أن أوضحنا أن «بوهيموند» قد أمضى أربع سنوات في الأسر حتى أُطلق سراحه بعد دفع فديته إلى كمشتكين بن دانشموند ، وفرح أهالي «أنطاكية» بإطلاق سراحه . ويذكر «وليم» أن «بوهيموند» شكر «تانكريد» على جهوده في إدارة الإمارة ، وإضافة مدينتين إلى تبعيتها ، وهما مدينتا أفاميا واللاذقية ، وأمافيا تقع على بعد خمسة وعشرين ميلا شمال غربي حماة . ويذكر «وليم الصوري» أن «بوهيموند» أقطع «تانكريد» الجزء الأكبر من ذلك الإقليم وربما يقصد به هاتين المدينتين . ثم عهد بالإمارة لتانكريد ـ في أواخر عام 1104م ـ حيث غادر إلى فرنسا ، وعقد تحالفاً مع ملك فرنسا فيليب ضد الكسيوس كومنين الإمبراطور البيزنطي . وعاد في عام 1107م يقود خمسة آلاف فارس وأربعين ألفاً من المشاة عن طريق البحر ، حيث هاجم عدة مدن ساحلية تابعة للبيزنطيين ، ودمر أبيروس ، وحاصر درازو . وتدخل أعضاء من الطرفين البيزنطي والصليبي فأصلحوا بين الطرفين . وتعهد الكسيوس أن يقدم أية مساعدة مطلوبة من الصليبيين لإتمام أهدافهم في الشرق ، وأن يمنع رعاياه من إعاقة تقدم الصليبيين . وتعهد «بوهيموند» بالمحافظة على صداقته مع الامبراطور وأن يكون تابعاً مخلصاً له . وبعد عقد الاتفاق توجهت طائفة من أتباع «بوهيموند» نحو «بيت المقدس» . أما هو فقد توجه في سنة 1109م إلى أملاكه في جنوبي إيطاليا في أبوليا . ومع قدوم الصيف استعد للتوجه لإمارته «أنطاكية» ، إلا أنه توفى بمرض خطير داهمه ، فمات سنة 1109م وورثه في «أنطاكية» ابنه «بوهيموند» بن كونستانس ابنة فيليب ملك فرنسا ، وكان «بوهيموند» يبلغ آنذاك سنتين فقط ، فصار «تانكريد» وصيّاً عليه[41] .

رابعاً ـ تانكريد بن وليم مارشيسوس ثاني حاكم صليبي لأنطاكية

هو ابن أخت «بوهيموند» صاحب «تارنتو» . و«بوهيموند» هو أول أمير صليبي لإمارة «أنطاكية» التي أُسِّست في يوليو 1098م . ويعتبر «تانكريد» أصغر القادة الصليبيين عمرا ، حيث كان يبلغ الحادية والعشرين عند مشاركته في الحملة النظامية ، وكان له دور واضح في الحملة ، كما أصبح وصياً على بوهيموند الثاني القاصر بعد وفاة خاله «بوهيموند» الأول سنة 1109م وحتى موته سنة 1112م ، وسوف يتولى الوصاية بعده على «بوهيموند» الثاني روجر بن ريتشارد . وقد صحب «تانكريد» خاله «بوهيموند» مع جيش نورماني يقدر بحوالي أربعة آلاف ، وقد شارك مشاركة كبيرة في دعم جيش النورمان الذي قاده خاله «بوهيموند» . فعندما كانت القوات النورمانية ـ في الثامن عشر من فبراير عام 1097م قرب نهر الوردار ـ لاحظ «تانكريد» وجود أناس يتتبعون حركة قواتهم . ويصف «وليم الصوري» رد فعل «تانكريد» بما يلي : «فلما اتضح المكر السيء لتانكريد ـ وكان مستعداً على الدوام للعمل ـ هب كأنه البرق الخاطف إلى تلك الناحية ، مستصحباً معه ما يقرب من ألفي فارس ، وعبروا النهر المزبد سباحة إلى شاطئه الآخر ، الذي لم يكادوا يصلونه حتى وثبوا على العدو بسيوفهم ، فتفرقت صفوفه وأرغموه على الفرار ، ثم مضوا يتعقبونه بعض الوقت ، وفتكوا بالكثيرين من رجاله ، كما أسروا البعض منهم وجاؤوا بهم إلى «بوهيموند» الذي أمطرهم بأسئلة ، مستفسراً منهم عما وراء مطاردتهم جيشاً مسيحياً مثلهم واقتفاء أثره ، فقالوا «إنهم رجال الإمبراطور ومرتزقته» . ويذكر «وليم» أن «بوهيموند» عفا عن هؤلاء حتى لا يثير حنق الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين الذي تحالف مع من سبقه من القادة الصليبيين كجودفري دوق اللورين الأدنى[42] . ولا شك في أننا نجد «وليم» يطري «تانكريد» ويمدحه مدحاً مبالغاً ، فهو «كالبرق الخاطف» في نهوضه إلى الأعداء .

وتعرضت القوات الصليبية قرب وادي جورجون في أول يونيو 1097م لهجوم عنيف من قوات مسلمة يقودها قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ،

وتعرف هذ المعركة بمعركة ضوريليوم الشهيرة . ولا يهمنا تفاصيل المعركة ، ولكن يهمنا أن القوات الصليبية في المقدمة التحمت في قتال شرس مع قوات قلج أرسلان وذلك قبل قدوم الجزء الآخر من قوات الصليبيين ، وكان «تانكريد» ضمن قوات المقدمة ، حيث يصفه «وليم» بما يلي : «لم يكترث بالحياة . . . وكان الموت منه قاب قوسين أو أدنى . . . ولكنه نجا بفضل ما بذله «بوهيموند» من جهد»[43] .

وقد تحدثت سابقاً عن الخلاف الذي وقع بين «بلدوين» ـ شقيق الدوق «جودفري» و«تانكريد» حول ملكية مدينة «طرطوس» في عام 1097م ، وكيف أن «بلدوين» أهان «تانكريد» ، وأجبر أهالي المدينة الأرمن على الدخول في طاعته بالرغم من خضوعهم فعليّاً لتانكريد . وقد وصف «وليم» تصرف «بلدوين» بقوله : «وكان مدفوعاً في ذلك بانفعالاته ، فجاوز حدود الفطنة ، فتطاول على «تانكريد» بكلماته السفيهة ، وأدت غطرسته إلى مأزق أوشك فيه كل منهما أن يقاتل صاحبه» . وهنا تجدر ملاحظة أن «وليم» لم يصف «بلدوين» نفسه بالسفيه بل وصف كلماته بالسفه . ويمتدح «وليم» تصرف «تانكريد» ويصفه بكظم الغيظ ، فيقول ما نصه : «فلما رأى تانكريد هذا الحيف الذي حاق به أحرقه الغيظ عن الحق ، لكنه كظم غيظه بفضل ما طبع عليه من رجاحة العقل ، ومن تعوده الصبر على تحمل الآلام ؛ شفقة منه من حدوث شقاق خطير بين قوات المؤمنين الصليبيين ، فترك «تانكريد» المدينة لبلدوين واتجه إلى مدينة أضنة التي استولى عليها ـ قبل فترة قصيرة ـ أحد القادة الصليبيين ويدعى جيلف ، حيث أحسن استقباله» .

ثم اتجه «تانكريد» إلى المصيصة فاحتلها بالقوة[44] . ثم توجه «بلدوين» نحو المصيصة وعسكر عندها ، ولم يجرؤ أن يطلب من «تانكريد» السماح له بدخولها ، وقد اغتاظ «تانكريد» لتصرف «بلدوين» هذا ، فقرر الانتقام لما أصابه من إهانة في «طرطوس» وما قد لحق قوات «بوهيموند» التي جاءت لمساعدة قوات «تانكريد» في «طرطوس» ، واضطرت هذه القوات إلى المبيت خارج

«طرطوس» وباغتها المسلمون فأبادوهم وهم نائمون . ويصف «وليم» شعور «تانكريد» فيقول : «ولما ترامى إلى سمع «تانكريد» خبر وصول «بلدوين» ، وأنه نصب معسكره على مقربة منه ، غلى مرجل غضبه ، وثارت ثائرته ، وتأججت نيران سخطه ؛ إذ عاودته ذكرى المصائب التي صبها هذا الرجل «بلدوين» ـ ظلما وعدوانا عليه ، ودعا رجاله ـ وهو في سورة حنقه ـ إلى حمل السلاح مجمعا العزم على رد الصاع صاعين ، وأن ينزل ببلدوين من الأذى مثل الذي أنزله هو به من قبل» . وعموما وقع صدام شديد بين الجانبين استبسل به كلاهما ، ولم يُوقف القتال سوى دخول الليل ، حيث تراجعت قوات «تانكريد» إلى المدينة لتتحصن بها . والجدير بالذكر أن قوات «تانكريد» كانت أقل بكثير من قوات «بلدوين» . ويذكر «وليم» أن بعض النبلاء من قوات «تانكريد» وقعوا في أسر «بلدوين» ومنهم أقرباؤه ريتشارد دي برنسباتي وروبرت دانزي ، ويُحمّل «وليم» هذين الأسيرين وزر تحريض «تانكريد» على الانتقام من «بلدوين»[45] .

والذي يتتبع رواية «وليم» يوقن أن «تانكريد» لم يكن يحتاج إلى أحد ليحرضه ضد «بلدوين» . ونلاحظ بوضوح وقوف «وليم» مع «تانكريد» ضد «بلدوين» ، ومع ذلك نرى «وليم» يحمل نبلاء «تانكريد» مسؤولية مهاجمة قوات «بلدوين» المعسكرة قرب المصيصة .

وعندما تحدث «وليم الصوري» عن جهود الصليبيين عند تشديدهم الحصار على «بيت المقدس» أطرى دور «ريمون» كونت «تولوز» ، وبرر ذلك لتوافر المال عنده أكثر من بقية قادة الحملة الصليبية ، ولم يذكر اسم «تانكريد» إلا عندما ذكر أسماء القادة الذين فرضوا الحصار على المدينة من جهة الشمال ، ثم يذكر اسم «تانكريد» عندما وقع خلاف بينه وبين «ريمون» كونت «تولوز» ، مما حمل القادة الصليبيين على دعوة جنودهم إلى صوم أحد الأيام ، حتى يكون فرصة لنزع فتيل الخلاف بين القائدين . ولم يذكر «وليم الصوري» سبب هذا الخلاف بين القائدين ، ولم يُحمل أحداً مسؤولية الخلاف ، بل سكت عنه[46] . ويخبرنا ريمون داجيل أن «تانكريد» انضم لقوات «ريمون» عند حصارها

لعرقة منذ 14 فبراير 1099م حتى الثالث عشر من مايو . وعرقة تقع على بعد حوالي خمسة عشر ميلاً من «طرابلس» ، ثم تركه وانضم إلى قوات «جودفري» عندما توجه نحو «بيت المقدس» لحصارها ، وذلك طمعاً لكسب أموال أكثر من «جودفري» . وعندما نجح «جودفري» وقواته في اقتحام الأسوار والأبراج شمالي مدينة «بيت المقدس» في الخامس عشر من يوليو 1099م ، نرى «وليم الصوري» يذكر أسماء القادة الذين اقتدوا بشجاعة «جودفري» ، ومنهم «تانكريد» حيث يصفه بما يلي : «تانكريد الباسل الذي لا تأتيه من أية ناحية إلا وجدته أهلاً لكل ثناء»[47] .

وعندما يتحدث «وليم الصوري» عن المذبحة المروعة كما يسميها في «بيت المقدس» والتي ابتدأها «جودفري» ، نراه يثني على جهود «تانكريد» في قيادة مذبحة المسجد الأقصى الذي احتمى به حوالي عشرة آلاف من المسلمين . ويوافق ريمون داجيل «وليم الصوري» ، حيث يقول : «وسفك «تانكريد» و«جودفري» في المقدمة كمية لا تصدق من الدماء» . ويصف «وليم الصوري» ذلك . فيقول : «فر الجانب الأكبر من الناس إلى فناء المسجد لوقوعه في موضع قاص من المدينة كان محصناً أشد التحصين بسور وأبراج وأبواب ، لكن فرارهم إلى هناك لم يسعفهم بالخلاص ، إذ سرعان ما اقتفى «تانكريد» أثرهم على رأس معظم رجال الجيش الذي اقتحم به المسجد وأعمل مذبحة شرسة حمل بعدها معه ـ كما يقول الخبر ـ كميات كبيرة من الذهب والفضة والجواهر ، ومع ذلك فالاعتقاد السائد أنه لما هدأت العاصفة فيما بعد قام فرد هذه الثروات دون أن تمسها يد»[48] . وهنا يظهر «وليم» تحيزه نحو «تانكريد» وكأنه يبرئه من تهمة الغلول في الغنيمة ، ومع هذا فإن صياغة الخبر تؤكد التهمة . ثم يذكر «وليم الصوري» الطرق البشعة التي اتبعها الصليبيون في قتل المسلمين المحتمين بالمسجد من ذبحهم كالشياه وتقطيع أعضائهم ، وقذفهم من أماكن عالية حتى تتهشم أجسادهم وأعضاؤهم . ويهمنا هنا أنه لم يوضح دور «تانكريد» في إعطاء هؤلاء الصليبيين دور القدوة والمثل في سفك دماء المسلمين ، وإن كان يظهر من تزعم «تانكريد» لهذه القوات أنه كان المدرب والقدوة لمحبي سفك الدماء هؤلاء .

ويكفي أن «وليم الصوري» يرى ما وقع علي هؤلاء المسلمين «قضاء عادلاً من الرب أمضاه في من دنسوا هيكل السيد ـ أي المسجد الأقصى ـ بشعائرهم الخرافية وحرموه على شعبه المؤمن ، فكان لا بد لهم من أن يكفروا عن خطيئتهم بالموت ، وأن تطهر الأماكن المقدسة بدمهم المهراق»[49] .

وبعد عدة أشهر من استيلاء الصليبيين على «بيت المقدس» عاد معظم الزعماء الصليبيين إلى أوطانهم ، وتبقى مع «جودفري» «تانكريد» ابن أخ «بوهيموند» أمير «أنطاكية» ؛ حيث وثق به «جودفري» وسلمه مدينة حيفا ، ويرجع «وليم الصوري» استبقاء «جودفري» لتنكريد لما رآه فيه من رجاحة عقله ونشاطه ونجاحه[50] .

ويبدو أن «تانكريد» كان يتحين الفرصة للانتقام من بلدوين دي بورج كونت «الرُّها» قريب الملك «بلدوين» الأول وكونت «الرُّها» السابق . وقد سبق أن ذكرت ـ عند حديثي عن «بوهيموند» كيف تخاذل «بوهيموند» و«تانكريد» عنه ـ عندما قاتلا مع «بلدوين» قوات مسلمة عند مدينة حران عن بلدوين دي بورج . ولا يُستبعد أن «بوهيموند» و«تانكريد» كانا متفقين على الانتقام من «بلدوين» الذي أُسر في تلك المعركة ـ في عام 1104م ـ وذاق ذل الأسر كما ذاقه من قبل «بوهيموند» عندما أسره كمشتكين بن الدانشمند في عام 1101م قرب ملطية في طريقه لاستلامها من صاحبها جبريل الأرمني . وقد أوضحت سابقاً أنه لا يستبعد أن «بوهيموند» اتهم «بلدوين» بتدبير أسره على يد كمشتكين بن الدانشمند ، ولذا وجدناه يخذله في معركة حران . والجدير بالذكر أن «وليم» لم يصرح بذلك وإن وصف هروب «بوهيموند» و«تانكريد» ـ قبل حسم المعركة ـ بأنه فرار مشين .

وأقطع «جودفري» ـ أول حاكم لبيت المقدس ـ «تانكريد» مدينة حيفا ، وأخلص «تانكريد» لسيده «جودفري» . وعندما قدم «بلدوين» دي بويون ـ كونت «الرُّها» ـ واستلم الحكم بوصفه أول ملك متوج لبيت المقدس عام 1101م ـ كره «تانكريد» الخضوع لهذا السيد الجديد الذي عاداه منذ الشهور الأولى

للحملة الأولى ، وقد سبق الحديث عن عداوتهما حول «طرطوس» في عام 1097م . ويصف «وليم» شعور «تانكريد» تجاه «بلدوين» في تلك اللحظة ، فيقول : «كان اعتلاء «بلدوين» العرش على هذه الصورة ، ولكن «تانكريد» ـ ذو الأثر المجيد والذاكر أبدا للمسيح ـ كان يطوي صدره على ما صبه عليه «بلدوين» من ظلم أيام وجوده في «طرطوس» بقليقية ، وإذا كان من خلق «تانكريد» التدين العميق والعمل على راحة ضميره فقد كره أن يربط نفسه بيمين الولاء لحاكم لا يحس نحوه بالحب الصادق ، فرد على الملك مدينة طبرية ، كما تنازل في الوقت ذاته عن مدينة حيفا التي كان «جودفري» ـ الخالد الذكر ـ قد أقطعه إياها عن طيب خاطر لقاء خدماته الجليلة»[51] . وهنا نرى تمسك «وليم» بموقفه تجاه الخلاف بين «بلدوين» و«تانكريد» ؛ إذ وقف إلى جانب المظلوم وهو «تانكريد» ولا يزال مع «تانكريد» بالرغم من تأييد «وليم» لبلدوين تولى أمر المملكة وثنائه على أعماله لاحقاً . ثم يذكر «وليم» قبول «بلدوين» لتنازل «تانكريد» ، ثم مغادرته إلى «أنطاكية» ليتولى أمرها بسبب سقوط أميرها «بوهيموند» في أسر المسلمين ، وهنا لم ينس «وليم» أن يمتدح «تانكريد» على جهوده المخلصة في المملكة حتى إن كل الصليبيين كانوا كارهين مغادرته المملكة نحو إمارة «أنطاكية» .

ويمتدح «وليم» أمير «أنطاكية» الجديد «تانكريد» ؛ فعند حديثه عن حصاره ثم استيلائه على «أفامية» يصفه «بالعظيم» ، ويعزو هذا النصر الذي حققه «تانكريد» إلى حماسته التي لا يتطرق إليها الكلل ومجهوداته العظيمة ، وقد أدى هذ الاستيلاء إلى اتساع حدود إمارته اتساعاً كبيراً» ، ثم يذكر «وليم» مباشرة خبر تسليم أهالي اللاذقية الإغريق مدينتهم لتانكريد في يوم استيلائه على «أفامية» . ويذكر «وليم» ما نصه : « . . وقد تم له ذلك وفق الشروط الأولى التي أبرمها مع أهل اللاذقية ، وهي شروط نصت على أن يسلموه بلدهم ـ من غير معارضة ـ في نفس اليوم الذي يتمكن فيه من فتح «أفامية»[52] . وهنا يحق لنا أن نسأل : هل قام أهالي اللاذقية بتسليم مدينتهم بإذن من سيدهم الإمبراطور البيزنطي؟ أم أن هناك فئة من أهالي اللاذقية تعاونوا على تسليم المدينة لتانكريد

وتآمروا على سيدهم؟ . ولم يعطنا «وليم» تفصيلاً غير هذا النص الذي ذكرته . ويمتدح «وليم» هذا الإنجاز القياسي الذي حققه «تانكريد» في يوم واحد ، فيقول : «وهكذا استطاع «تانكريد» ـ بمعونة الرب ـ أن ينجز في حملة واحدة عملاً كان إنجازه يتطلب أياماً طويلة ، وكسب في مرة واحدة مدينتين تتبع كلا منهما مناطق شاسعة ذات قرى حصينة وحقول واسعة . والحق أن «تانكريد» كان رجلاً يحب الله ، وكان مشهوراً بإيمانه ، مذكوراً بأعماله البطولية ومحبوباً من الناس بسبب خدماته الجليلة ، ولا جدال في أن التوفيق كان حليفه في كل أمر نهض به»[53] .

ويذكر «وليم» خبر إطلاق سراح «بوهيموند» بعد دفع فديته سنة 1104م ، وقد استمر أسره عند المسلمين لمدة أربع سنوات . ولم يذكر «وليم» من تكفل بدفع الفدية ، ولكن مصادر أخرى تذكر أن الملك «بلدوين» الأول وبرنارد بطرك «أنطاكية» تكفلا بدفع الفدية . ويبدو أن «تانكريد» لم يشارك في دفع الفدية ، وربما كان يود أن لا يُطلق سراح حاله «بوهيموند» حتى يستمر في حكم «أنطاكية» . ومع هذا نرى «وليم» يورد شكر «بوهيموند» لتانكريد ، فيقول : «وأراد «بوهيموند» إظهار تقديره لما أداه «تانكريد» من الخدمات ومجازاته عليها أحسن الجزاء ، فأقطعه وورثته الجزء الأكبر من ذلك الإقليم ، ربما يقصد الإقليم الذي يضم اللاذقية و«أفامية» التي استولى عليها «تانكريد» سابقاً ، بحيث يتوارثونه خلفاً عن سلف إلى الأبد» . ثم لم يلبث الأمير «بوهيموند» أن عهد إليه بالإمارة ، كما سنروي ذلك في الصفحات التالية[54] . ويقصد «وليم» هنا أن بوهيموند سيسافر إلى فرنسا ، حيث سيتزوج ابنة ملك فرنسا وهي كونستانس بنت الملك فيليب ، كما سيتزوج «تانكريد» بابنة فيليب الثانية وهي فسيسيليا ، ويعقد حلفاً مع الملك الفرنسي ضد البيزنطيين ، حيث عهد «بوهيموند» لتانكريد بإدارة شؤون الإمارة بسبب غيابه في فرنسا[55] .

وفي عام 1105م قام الملك رضوان صاحب حلب بحملة عسكرية في أراضي «أنطاكية» خاصة قرب أرتاح ، الواقعة على بعد خمسة عشر ميلاً شمال

شرقي «أنطاكية» ، فقام «تانكريد» بقواته ، وشتت قوات رضوان ووقع كثير منهم في الأسر ، وقتل منهم كما يقول وليم الصوري «ما لا يكاد يحصيه العد» . وهنا يؤكد وليم الصوري مدى تدين «تانكريد» ، حيث يقول : «فتوجه أول ما توجه إلى السماء يرجوها العون الذي جاءه جزاء حسناته»[56] .

وتمكن «بلدوين» كونت «الرها» وقريبه جوسلين في سنة 1109م من الفرار من أسرهما عند المسلمين ، وعادا إلى «الرها» ، فرفض«تانكريد» أن يسمح لهما بدخولها ، وعندما ألح عليه صليبيو «الرها» ، وذكروه باليمين التي قطعها على نفسه سنة 1104م بعد تخاذل «تانكريد» و«بوهيموند» عن «بلدوين» ، وحثوه أن يعيد الكونتية إلى صاحبها «بلدوين» في حال إطلاق سراحه ، فاضطر إلى الخضوع ، وسلم الكونتية لهما . ونستغرب هنا عدم استنكار «وليم» تراجع «تانكريد» عن يمينه وتعهده برد الكونتية لصاحبها ، ووصل الأمر بجوسلين إلى أن تحالف مع الأتراك ، وهاجم إمارة «أنطاكية» . ووقع كثير من أصحاب «تانكريد» قتلى يقدرهم وليم الصوري بخمس مئة رجل ، ثم أعاد «تانكريد» الكرة ، وانتصر على قوات جوسلين وحلفائه الأتراك ، ثم تصالح الطرفان بعد تدخل كبار رجال الصليبيين[57] .

وخرجت سنة 1112م حملة سلجوقية من قبل السلطان محمد السلجوقي يقودها شرف الدولة «مودود» صاحب الموصل . ويصف «وليم الصوري» كثرة هذه القوات ، فيقول : «جموع كثيفة من ذلك الشعب البغيض ، وينساب في أرتال ضخمة تكاد تغطي وجه البسيطة» ، ولايعطينا تقديراً لهذه القوات ولا للقوات الصليبية التي خرجت لصدها . وعموماً حاصرت القوات السلجوقية مدينة تل باشر ـ على بعد خمسين ميلا شمال شرقي حلب ـ لمدة شهر كامل ، ثم تركت الحصار ليأسها من الاستيلاء عليها كما يوضح «وليم الصوري» ، ثم انسحبت القوات المسلمة السلجوقية نحو حلب ، وكان هدف «مودود» ـ كما يذكر «وليم الصوري» ـ هو استدراج «تانكريد» حتى يخرج بقوات «أنطاكية» فتطبق عليه قواته التي تتفوق عليه عدديّا ، إلا أن «تانكريد» اكتشف خطة

«مودود» ، ولذا أحجم عن ملاقاة قوات «مودود» ، وسارع في طلب النجدة من «بلدوين» ملك «بيت المقدس» الذي أسرع مع قواته وقوات برتوم كونت «طرابلس» ، وتجمعوا جميعاً عند الروج ، الواقعة على بعد خمسين ميلا من غربي حلب ، ثم زحفوا نحو حصن شيزر ، حيث كانت قوات «مودود» ، وأخذ كل فريق كما يقول وليم «يطالع الآخر ويتأمله» ، ويزعم «وليم» أن السلاجقة غادروا خوفاً .

ويهمنا هنا أن «وليم الصوري» أطرى تصرف «تانكريد» لاستدعاء «بلدوين» ملك «بيت المقدس» ، ويصفه «بالرجل الكيس الذي لا يصدر عنه عمل إلا عن روية وتفكير»[58] . وهناك روايات تذكر أن «تانكريد» قد رشا أحد قادة «مودود» ، على حين كانت قواته تحاصر تل باشر ، فقام هذا القائد وهو أحمد يل بفك الحصار والانسحاب بقواته ، مما اضطر «مودود» لرفع الحصار .

ومرض «تانكريد» في سنة 1112م ، وأوصى زوجته سيسيليا ابنة فيليب ملك فرنسا بالزواج من أحد حلفائه المخلصين وهو بونس بن برترام كونت «طرابلس» ؛ وتوفى «تانكريد» الذي يصفه «وليم الصوري» عند وفاته بأنه ذو «الذكر الطيب والمخلص للسيد المسيح ، وستظل كنيسة القديسين الجامعة تبكيه وتذكر أياديه عليها وتشيد بتقواه» . وتم تنفيذ وصية «تانكريد» ، كما تم تنفيذ وصيته بتولي روجر بن ريتشارد إمارة «أنطاكية» على شرط ردها إلى «بوهيموند» الثاني إذا بلغ سن الرشد بوصفه حاكماً شرعيّاً للإمارة ، ووريثاً لبوهيموند الأول أول حاكم صليبي لأنطاكية الصليبية الذي تُوفى في 1109م[59] .

خامساً ـ الملك بلدوين الأول كونت الرها السابق

بعد وفاة حاكم «بيت المقدس» «جودفري» في الثامن عشر من يوليو 1100م ، قام بطرك «بيت المقدس» دايمبرت بإرسال رسالة يستدعى «بوهيموند» ـ أمير «أنطاكية» ـ ليتولى أمر «بيت المقدس» . ويذكر «وليم» أن الرسالة لم تصل لبوهيموند لأنه أُسر آنذاك من قبل كمشتكين بن الدانشموند ، ولكنه لم يذكر لنا

لماذا لم تصل هذه الرسالة إلى «تانكريد» الذي تولى أمر «أنطاكية» بعد أسر خاله «بوهيموند» . وقام إقطاعيو مملكة «بيت المقدس» العلمانيون بإرسال رسالة لبلدوين ـ شقيق الدوق «جودفري» ـ كونت «الرها» لتسلم السلطة . وعموماً تمكن «بلدوين» من القدوم لبيت المقدس في أكتوبر 1100م ، وتولى أمر المملكة منذ أكتوبر ، وتوج في 25 ديسمبر 1100م . ويهمنا هنا أن «بلدوين» الأول قد عهد لأحد أقاربه وهو بلدوين دي بورج بأمر كونتية «الرها» منذ مغادرته للرها لتولي أمر المملكة . ويصف «وليم» هذا الكونت الجديد للرها بأنه «رجل عظيم راجح العقل»[60] . والجدير بالذكر أن بلدوين دي بورج كان ضمن القادة الذين صحبوا الدوق «جودفري» في الحملة الأولى النظامية منذ انطلاقها .

توفي «جودفري» ـ حاكم «بيت المقدس» ـ كما أسلفنا ـ في الثامن عشر من يوليو سنة 1100م ، وظل عرش «بيت المقدس» شاغراً لمدة ثلاثة أشهر ، ورأى الزعماء الإقطاعيون تنصيب «بلدوين» كونت «الرها» لحكم «بيت المقدس» ، على حين رأى رجال الدين وجوب تنفيذ تعهد «جودفري» بتولية أمر «بيت المقدس» لبطركها «دامبرت» بعد وفاته وذلك في حال موته دون ولد يرثه .

ولما وجد «دامبرت» تمسك الإقطاعيين برأيهم قرر مراسلة «بوهيموند» ـ أمير «أنطاكية» ليتولى أمر المملكة ، ولكن «بوهيموند» وقع في أسر المسلمين ، ونجح «بلدوين» في الوصول لبيت المقدس ، وتسلّم أمورها ونصب نفسه أول ملك لبيت المقدس بعد أن نجحت جهود الوساطة بين «بلدوين» و«دامبرت» بطرك «بيت المقدس» .

ويأخذ «وليم» في وصف «بلدوين» وتحليل شخصيته ، فيقول «إنه كان وقور السمت ، متحفظاً في لباسه ، مقتصداً في كلامه ، يلبس على الدوام عباءة تتدلى على كتفيه . إن تحدث فهو رزين في حديثه ، كما أنه محمود في عاداته ، وفيه من الوقار ما يحمل من لا يعرفه تمام المعرفة على الظن بأنه من رجال الدين أكثر من أن يكون علمانيّاً . ومع ذلك فلا شك أنه كان كغيره من ذرية آدم ، ووريثاً للخطيئة الأولى ، إذ يُقال إنه لم يكن يستطيع كبح شهوات البدن ،

وانحدر فانغمس في الملذات الجنسية دون أن يعف عن شيء منها ، وإن لم ينكب أحداً أو يُصبه بمضرة فادحة . والحق أنه لم يكن ثمة من يدري بعاداته الفاجرة سوى نفر قلائل من خاصته ، مما يُعتبر شيئاً نادراً في مثل هذه الأمور ، وإن كان أنصاره يحاولون ـ كما هو الحال إزاء جميع الخطاة ـ تبرير ما فعله ، إلا أنه يمكن اعتبار بعض ما فعله قضاء قضى به عليه الرب ، وهذا ما يراه عامة الناس فيما بعد . ولم يكن «بلدوين» بالرجل البدين ، بل كان وسطاً بين هذا وذاك ، إلى جانب درايته باستعمال السلاح ، وبراعته في ركوب الخيل ، وما تميز به من النشاط الجم ، كما أنه كان مستعداً على الدوام للقيام بما يُطلب إليه القيام به من أعمال المملكة»[61] . وكأن «وليم» يقول إن مؤهلات «بلدوين» وسجاياه ترجح مثالبه ، وإن كانت تلك المثالب منها اتهامه بالزنا وهي جريمة كبيرة آنذاك في حق أي إنسان ، فكيف لو كان مقترفها ملكا لمملكة «بيت المقدس» الصليبية التي قامت على أساس ديني . وأهم ما يعيبه «وليم» على «بلدوين» الأول هو سماعه وطاعته للبطرك «أرنولف» بطرك «بيت المقدس» فيما يشير عليه ، فيصف هذا البطرك بأنه دنيء الطبع ، وأنه مغتصب لمنصب البطركية دون حق[62] .

ويصف «وليم» رحلة «بلدوين» إلى «بيت المقدس» ، فقد كانت رحلة محفوفة بكثير من المخاطر ، وبخاصة لكونه سيضطر إلى عبور بلاد إسلامية ، وكذلك صليبية معادية له وهي إمارة «أنطاكية» ، وقد خرج بمئتي فارس وثمان مئة جندي من المشاة . فيصف «وليم» هذه الرحلة الجريئة ، فيقول : «فأثار دهشة الجميع خروجه في مثل هذه القلة من الأتباع ، وقيامه برحلة طويلة كهذه الرحلة تفرض عليه المرور ببلاد العدو ، كما عهد برعاية إمارته ـ يقصد «الرها» ـ إلى رجل عظيم القدر راجح العقل من ذوي قرباه هو «بلدوين دي بورج» الذي قدر له أن يخلفه فيما بعد ، لا في «الرها» فحسب ، بل في المملكة أيضاً (أي بعد وفاة «بلدوين» الأول عام 1118م)»[63] . وفي رحلته هذه لقي «بلدوين» قوات مسلمة قرب نهر الكلب ، فهاجمت قواته تلك القوات ، ويصف «وليم» إقدام قوات «بلدوين» ، فيقول : «فعجز رجال العدو عن الصمود لهذه الهجمة التي اصطلوا بنارها ، وتملكتهم الدهشة من بأس مطارديهم وجرأتهم حتى إنهم لم

يحاولوا القيام بأي محاولة للدفاع عن أنفسهم ، وأيقنوا أن الفرار هو أملهم الوحيد ، وأنه طريقهم الذي لا طريق سواه لسلامتهم»[64] .

ويحدثنا «وليم» عن غلظة «بلدوين» ، فعندما قبض على من سماهم بقطاع الطرق واللصوص من مسلمي عسقلان قطع رؤوس مئة منهم ، فيصف «وليم» هذا العمل بما نصه : «فاستسلموا بلا قيد وشرط للكونت ـ أي «بلدوين» قبل تنصيبه ملكاً ـ الذي لم تأخذه شفقة ولا رحمة بهم ، فأمر بقطع رؤوس مائة منهم في لحظته فقطعت ، وكان ذلك عقاباً عاجلاً يكافئ جرمهم»[65] ، ثم بعد صفحتين يذكر «وليم» صورة معاكسة لبلدوين الرحيم الإنسان ، فيعطف على امرأة مسلمة أسرها مع مجموعة ، وتركها مع وصيفتها حتى تلد وترك لها ناقتين ، وكانت تلك المرأة زوجة أحد شيوخ القبائل القاطنة في الأردن ، وعندما رأى شيخ القبيلة زوجته بهذا الوضع ، يصف «وليم» هذا المشهد بما نصه : «فلما وقع بصره ـ أي زوجها ـ عليها أخذه العجب كل العجب من تلك الروح الإنسانية العظيمة التي حاطها بها الملك ، وشرع يشيد بذكر اللاتين مثنياً على رحمة «بلدوين» العظيمة الثناء ، وأقسم ليكونن منذ هذه اللحظة إلى آخر عمره وفياً له ما وسعه الوفاء ، وكان هذا عهدا أوفى به في لحظة حرجة أشد الحرج»[66] .

ويثني «وليم» على جهود «بلدوين» في مد حدود مملكة «بيت المقدس» ؛ فقد انتهز «بلدوين» فرصة قدوم أسطول جنوي للحج ، فعرض عليه مساعدته للاستيلاء على بعض مدن الساحل التي مازال أكثرها تحت سلطة الفاطميين ، وتعهد «بلدوين» لهذا الأسطول بإعطائه ثلث ما يغنمه من كل مدينة ، وأن يمنح الجنوية شارعاً رئيساً في كل مدينة يسهمون في الاستيلاء عليها ، ليكون سوقاً خاصاً بهم . والجدير بالذكر أن هذه الشروط هي نفسها التي كان يقدمها الصليبيون وخاصة ملوك «بيت المقدس» لكل قوة بحرية تقدم لهم المساعدة للاستيلاء على المدن المسلمة الساحلية . وبهذا الاتفاق والتعاون حقق «بلدوين» هدفه في توسيع مملكة «بيت المقدس» ، فاستولوا على أرسوف في 29 من أبريل 1101م ، ثم قيسارية في 17 مايو 1101م ، وارتكب جنوده فيها مذابح مروعة كما

يذكر «وليم» فيما نصه : «حينذاك أخذ الجند المدججون بالسلاح يعيثون في أرجاء المدينة ، لا يعرض لهم أحد بردع أو دفع ، واقتحموا الدور التي لم تجد الأهالي نفعاً فيما ظنوه من أنهم واجدون الحماية داخلها ، ففتك العسكر بكبار الرجال الأسرى ، ونهبوا شتى الأدوات المنزلية ، وامتدت أيديهم فسلبت كل ما رغبوا فيه حتى المساكن ذاتها وحكموا السيف في الأهل والحشم ، واستولوا على الحجرات الخاصة ، ولسنا في حاجة للحديث عن مصير من قضى القدر بوضعهم في طريق قواتنا في الأماكن التي راحوا يختفون فيها في الشوارع الجانبية ، فكان نصيبهم الموت الذي لم يستطيعوا دفعه . أما الذين قدرت لهم النجاة فقد قتلوا أنفسهم بأيديهم ، إذ ابتلعوا القطع الذهبية والجواهر الغالية ، مما حرك جشع الصليبيين إلى درجة أنهم راحوا يبقرون بطون هؤلاء بحثاً عما يكونون قد خبأوه من المال في أمعائهم»[67] . بعد هذا الوصف لوليم لما ارتكبه الصليبيون في قيسارية لا نجده يذكر ردة فعل هذه الأعمال غير الإنسانية عند «بلدوين» ، وكأن «بلدوين» كان راضياً عن هذه التصرفات الغريبة . ثم يصف «وليم» مشهد المسلمين الذين ذُبحوا في بيعة كبيرة داخل المدينة بما يلي : «وكان منظر الجثث الجمة المبعثرة هنا وهناك منظراً يبعث الفزع في النفوس»[68] .

ويعيب «وليم» على «بلدوين» قلة حذره في بعض الأحيان ؛ فقد اجتمعت ـ في مايو 1102م ـ قوات فاطمية يقدرها «وليم» بعشرين ألفاً ، وهاجمت مناطق الصليبيين عند اللد والرملة ، فعندما بلغت «بلدوين» أخبار هذه القوات أسرع بقوة صغيرة من الفرسان تعدادها مئتا فارس وانضمت له قوات أخرى ، لكنها ربما لا تزيد عن خمس مئة لملاقاة القوات الفاطمية ، وتلقى جيش «بلدوين» هزيمة منكرة ، ووصفها «وليم» بما يلي : «ولم يكن في تاريخ حوليات المملكة ـ أي مملكة «بيت المقدس» ـ حتى هذه اللحظة مجزرة كهذه المجزرة المروعة ، هلك فيها رجال نبلاء شجعان كهؤلاء الرجال ، فتضعضعت روح المملكة المعنوية ، وفارق الجميع شجاعتهم ، وتفطرت قلوب العقلاء منهم ، وسقطوا في هوة عميقة من اليأس ، حتى كادوا أن يغادروا المملكة ، ولولا أن تداركهم رحمة انصبت عليهم من فوقهم»[69] ، ويُحمّل «وليم» الملك «بلدوين»

الأول مسؤولية هذه الهزيمة ، وإن كان لومه لم يكن شديداً فيقول : «فلما وصل هذا النبأ ـ أي نبأ حشد القوات الفاطمية ونهبها اللد والرملة ـ إلى الملك نسي حذره المعتاد ، ولم يتريث حتى تتجمع باقي القوات القادمة من المدن المجاورة ، كما أنه لم يستدع النبلاء الذين كانوا معه في المدينة (ربما مدينة «بيت المقدس») ، ولكنه اعتمد على قوته الذاتية وحدها ، وركب جواده ، واندفع متهوراً عجلاً غير مستصحب معه إلا ما يقرب من مائتي فارس . ولقد أحس وجوه المدينة أن العار لا بد لاحقهم ـ إن ظلوا في هذا الظرف الطارئ الذي هم فيه ـ مقيمين بلا حركة دون أن يشاطروا إخوانهم ما يقومون به ، ومن ثم حصلوا على الجياد من أصدقائهم وأقربهائهم ، وتبعوا مولاهم الملك»[70] ، ويحاول «وليم» التأكيد على أن كثرة قوات الفاطميين وقلة الصليبيين ، هما العاملان الأساسيان في هذه الهزيمة المنكرة للصليبيين التي فر فيها أكثر الصليبيين من ساحة المعركة ، بما فيهم الملك الذي فر إلى حصن قرب الرملة ، ثم لم ينتظر بزوغ الصباح ، ففر وحده ليلاً إلى أرسوف ، وترك أصحابه للقتل والأسر . وحاول «وليم» أن يبرر هروب «بلدوين» من القلعة ، لحرصه على المحافظة على المملكة لكونه ملكها ، وكأن نجاة «بلدوين» هي الأهم ، أمّا أصحابه الباقون فلا قيمة لهم . ويصف «وليم» وصول «بلدوين» إلى أرسوف بما يلي : «وران اليأس على النفوس ، فما من أحد إلا وقد فقد الأمل في الحياة ، وتمنى لو أسرع الموت إليه حتى لا يرى نكبة قومه ، ويشهد خراب المملكة ، لكن في هذه الأزمنة الطاحنة ، وقد استسلمت المملكة للحزن والنحيب لإشاعة خبر موت «بلدوين» ، إذا بالملك يخرج من أرسوف كأنه نجمة الفجر تتلألأ بين دياجير الظلام»[71] .

ثم يذكر جهود «بلدوين» في جمع قواته من جديد ومهاجمته للفاطميين وانتصاره عليهم في موضع لم يحدده ، فعوّض ذلك الصليبيون ، وثأروا لهزيمتهم السابقة ، ونعمت مملكة «بيت المقدس» بهدوء لمدة سبعة أشهر . ومن دون شك إن ذكر «وليم» لتفاصيل أعمال «بلدوين» ـ للثأر من تلك الهزيمة وإطراءه لانتصار «بلدوين» اللاحق يوضح تحيز «وليم» لبلدوين الذي كاد تهوره أن يهدد كيان المملكة الناشئ ويؤذن بزوالها ، حيث كان يسعى آنذاك لتوطيد

أركانها . ولم يكن الصليبيون آنذاك يسيطرون على الساحل الشامي ـ من اللاذقية حتي عسقلان ـ باستثناء يافا وأرسوف وقيسارية ، وكانت حركة القوات الصليبية بين مدن المملكة الناشئة محفوفة بالمخاطر الكثيرة من القوات الفاطمية[72] .

ويلوم «وليم» بلدوين «بسبب سماعه نصيحة «أرنولف» ـ شماس «بيت المقدس» وبطرك كنيسة «بيت المقدس» المعزول . فقد ألّب «بلدوين» على منافسه بطرك «بيت المقدس» المدعو «دامبرت» ، فاضطر «دامبرت» إلى ترك مملكة «بيت المقدس» إلى «أنطاكية» ، حيث واساه «بوهيموند» بمنحه كنيسة القديس جورج في «أنطاكية» . والجدير بالذكر أن «دامبرت» لم يستقل من منصبه ولم يُعزل من قبل البابوية ، ومع ذلك نصّب «بلدوين» «ابريمار» ـ آخذاً بنصيحة «أرنولف» ـ بطركا جديداً ، ويصفه «وليم» «بشدة التدين وشدة الغباء في نفس الوقت» . وهنا يلوم «وليم» الملك «بلدوين» على هذا التصرف ، فيقول : «أما الملك فقد انقاد إلى «أرنولف» الخبيث انقياداً ضالاً انحرف به عن الخوف من الرب ، فارتكب آثاماً جمة في أعقاب نفي «دامبرت» ، إذ نصّب في الكرسي البطركي قسيسا فدما سقيم الفهم ، وإن كان شديد التدين اسمه إبريمار كان قد جاء مع الحملة الأولى ، وعاش حياة مستقيمة . . . لكنه كان بالنسبة إلى ما صار إليه رجلا زمن الفطنة شديد الغباء ، وقد بلغ من بلادة الفهم حدا اعتقد معه أنه قادر على وقوف الجميع إلى جانبه إن اغتصب الكرسي البطركي في الوقت الذي لا زال فيه صاحبه الشرعي على قيد الحياة»[73] . وهنا يتضح لنا مدى تحيز «وليم» للبطرك «دامبررت» ، ومدى غضبه من تصرف الملك «بلدوين» الذي اعتاد «وليم» تبرير زلاته الكبيرة ـ غير المتصلة بالكنيسة الكاثوليكية ـ كما أوضحنا ذلك قبل قليل . ثم يتحدث «وليم» بالتفصيل عن محاولة «بلدوين» الناجحة للاستيلاء على ميناء عكا في مايو عام 1104م بمساعدة الأسطول الجنوي . وتجدر الإشارة هنا إلى أن «وليم» لم يثن على عمل «بلدوين» هذا ولم يمدحه حتى بكلمة واحدة ، مع أنه تحدث عن هذه المحاولة الناجحة في ثلاث صفحات[74] . ويبدو أن موضوع تنصيب بطرك لبيت المقدس مع وجود بطرك شرعي مازالت

في قلب «وليم» الذي أغاظه هذا التصرف حتى وصفه «بالضّال والمنحرف عن الخوف من الرب» .

ويعود «وليم» للحديث عن قصة تعيين بطرك غير شرعي وهو ابريمار في مملكة «بيت المقدس» ؛ حيث يذكر سفر «دامبرت» إلى البابا عام 1104م وتقديمه شكواه ضد الملك ، الذي عين ابريمار بطركا لبيت المقدس في العام الماضي . ثم يعرج «وليم» فيربط هذا العمل الذي يصفه بالجريمة البشعة بعمل آخر اقترفه «بلدوين» وهو إبعاده لزوجته الشرعية وهي ابنة ثوروس الأرمنية ، وزواجه بأدليد كونتيسة صقلية ، مع أنه لم يُطلق الأولى طلاقاً شرعيّاً ، وهو عند النصارى من كبائر الذنوب . ويحاول «وليم» هذه المرة أن يخفف وطأة تقريعه للملك ، فيذكر مبررات هذا العمل ، فيقول ما نصه : «وتعددت الروايات وتنوعت حول سبب انفصال «بلدوين» عن امرأته ؛ فيقول بعضها إن الملك أبعدها ليتزوج من أخرى أكثر منها مالا وأرفع مكانة ، فاستطاع بذلك إصلاح حاله وإنقاذ نفسه من الفقر . . . ، ويقول آخرون إن الملكة لم تكن متصاونة ، بل كانت متهاونة في مراعاة روابط الزوجية ، فأثارت بذلك غضب رجلها عليها (أي الملك)»[75] . وهنا يمكن أن نسأل «وليم» ـ بوصفه رجل دين كاثوليكيّاً ـ هل هذه التبريرات تسمح وفقاً للمذهب الكاثوليكي أن يجمع رجل بين امرأتين بزواج شرعي في وقت واحد .

وفي عام 1105م أرسل الخليفة الفاطمي حملة برية تدعمها حملة بحرية نحو عسقلان ، ويقدر «وليم الصوري» قوات الفاطميين البرية بخمسة عشر ألفاً ، على حين يقدر قوات «بلدوين» بخمس مئة فارس وألفي جندي مشاة . وتم لقاء القوات قرب الرملة وانتصرت القوات الصليبية ، ويقدر «وليم» خسارة الفاطميين بأربعة آلاف ، على حين يقدر قتلى الصليبيين بستين فقط . وبالرغم من إسهاب «وليم في شرح الإعداد للمعركة وكذلك المعركة ، فإنه لم يحرص على ذكر بطولة «بلدوين» ، بل نراه يثني على ابريمار بطرك «بيت المقدس» في تشجيعه للصليبيين وحثهم على الاستبسال . ومع أن «وليم الصوري» لا يرى

شرعية ابريمار ، إلا أنه يلقبه في هذه المعركة ببطرك «بيت المقدس» ؛ حيث إن «وليم» يرى أن «دامبرت» لا يزال هو بطرك «بيت المقدس» ، بالرغم من فراره من «بيت المقدس» والتجائه إلى أمير أنطاكية «بوهيموند»[76] .

وفي عام 1109م قدم برترام بن «ريمون» كونت «تولوز» بأسطول جنوي نحو «طرابلس» ، ودخل في صراع مع قريبه «وليم جوردان» الذي خلف «ريمون» كونت «تولوز» في أملاكه وفي حصار مدينة «طرابلس» . وقام «بلدوين» ملك «بيت المقدس» بجهود الوساطة ، ونجحت الوساطة باتفاق الطرفين على أن يتسلم «وليم جوردان» عرقه وكذلك مدينة «أنطرسوس» وملحقاتها ، ويكونا تابعين إقطاعياً لأمير «أنطاكية» «تانكريد» ، وتصير جبيل ـ على بعد عشرين ميلا جنوبي «طرابلس» ـ وتل الحجاج و«طرابلس» بعد احتلالها تابعة لبرترام بن ريمون ، على أن يكون برترام خاضعاً إقطاعيّاً لملك «بلدوين» ملك «بيت المقدس» ، واشترطوا إذا مات أحد الطرفين دون وريث أن يخلفه الآخر . وحدث أن قُتل «وليم جوردان» بسهم طائش في قتال بينه وبين برترام ، فصارت أملاكه إلى برترام . ويؤكد «وليم الصوري» أن مقتل «وليم جوردان» كان مكيدة من مكائد برترام الدنيئة ، ولم يشر «وليم» إلى تورط «بلدوين» في هذه المكيدة[77] .

وقاد «بلدوين» قواته تجاه «طرابلس» للمشاركة في حصارها مع قوات برترام الجنوبية . وعندما يئس أهل «طرابلس» من الصمود أرسلوا الرسل إلى الملك «بلدوين» والكونت برترام يقترحون الاستسلام مقابل أن يؤمن لهم خروجا سالماً مع أهاليهم وأموالهم ، فقبل الملك هذه الشروط ، وتم استلام «طرابلس» في العاشر من يونيو 1109م ، فصارت «طرابلس» عاصمة لكونتية «طرابلس» ، وأعلن برترام من جديد طاعته للملك[78] .

وفي عام 1110م قام «بلدوين» برفع كنيسة بيت لحم إلى مرتبة الكاتدرائية وسمى لها أسقفاً . ويصف «وليم الصوري» هذا العمل بأنه دليل شدة تقوى الملك وعنايته بهذه المدينة التي شهدت ميلاد المسيح عليه السلام ، وينشر «وليم» نص المرسوم الذي أصدره «بلدوين» ، وقد استغرق حوالي أربع صفحات ،

ليؤكد صدق هذا الملك وتقواه[79] .

وتمكن «بلدوين» بدعم من برترام كونت «طرابلس» وأسطول جنوي من الاستيلاء على ميناء بيروت بعد حصار بري وبحري امتد شهرين ، وكان ذلك في السابع والعشرين من إبريل 1110م . وعندما تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة ، فرّ الأهالي نحو الساحل فتلقتهم سيوف الجنوية ، ووقعت مذبحة للأهالي . وهنا يروي «وليم الصوري» ما يلي : «وأخيراً استفظع الملك هذه المذبحة التي لا تعرف الرحمة ، فأمر أن يُنادى بوقفها» ، وكأنه يقول إن الملك أخذ يتفرج على المذبحة حتى طلب أخيراً وقفها ، ولم تطرق الرأفة قلب الملك إلا بعد أن شبع من رؤية الدماء وأشلاء القتلى[80] .

وزحف «مودود» صاحب الموصل بحملة كبيرة اتجهت نحو فلسطين ، ونصب معسكره قرب طبرية في صيف 1113م ، ولم يذكر «وليم الصوري» تحالف طغتكين صاحب دمشق مع «مودود» ، وعندما وصلت إلى «بلدوين» أخبار حملة «مودود» استدعى كلا من روجر بن ريتشارد أمير «أنطاكية» وبرترام كونت «طرابلس» . ويُحمّل «وليم الصوري» «بلدوين» مسؤولية النكبة التي وقعت بقوات «بلدوين» ؛ حيث تعجل «بلدوين» الخروج نحو عسكر «مودود» دون أن ينتظر القوات الصليبية التي طلبها ، بل إن «وليم» يؤكد أن قوات «أنطاكية» و«طرابلس» كانت قريبة من قوات «بيت المقدس» الصليبية ولا يزيد بعدها على مسيرة يوم أو يومين ، ومع هذا وقع «بلدوين» في كمين قامت به قوات «مودود» فاستدرج لقتال قوات لا تزيد عن خمس مئة فارس ، ثم خرج له ألف وخمس مئة فارس ، فأطبقوا على قواته ونجا «بلدوين» بمعجزة كما يصف ذلك «وليم الصوري» ، والتجأ ببقية قواته المهزومة إلى جبال قرب طبرية ، وظل مُحاصرا من قبل قوات «مودود» حتى قدمت له قوات «أنطاكية» و«طرابلس» . ويقدر «وليم الصوري» قتلى الصليبيين بثلاثين فارساً وألف ومئتي جندي من المشاة ، ويصف «وليم» مدى خطورة وضع الصليبيين عندما كانوا محاصرين في جبال طبرية ، إلى أن قدمت مساعدات بحرية صليبية فاضطر «مودود» لفك

الحصار . ونرى «وليم الصوري» يصب غضبه على «بلدوين» فيصفه بالتعجل والطيش ، ويصف ما حل بالصليبيين بالنكبة[81] .

وأقدم «بلدوين» في هذا العام على مغامرة ؛ حيث أرسل وفدا بتحريض من بطرك بيت المقدس «أرنولف» السابق إلى صقلية فأقنع أدليد كونتيسة صقلية بالزواج من «بلدوين» . ويحاول «وليم الصوري» أن يقلل من إدانته لمغامرة «بلدوين» ، حيث يُحمّل بطرك بيت المقدس «أرنولف» مسؤولية تدبير هذا المشروع ، فمن المعروف أن «بلدوين» مازال على ذمته امرأة أخرى ولم يطلقها ، فلا يحل له الزواج من امرأة ثانية ، كما يصرح «وليم» أن «بلدوين» كان يهدف من هذا الزواج إلى الحصول على أموال كونتيسة صقلية الغنية ، وذلك بربطها بأمل أن يرث ابنها روجر بن روجر الملقب ببورصة مملكة «بيت المقدس» في حالة عدم إنجابها طفلاً من «بلدوين» . وانتهى هذا الزواج الغريب بطلاق «بلدوين» لادليد بعد انكشاف خبايا هذا المشروع[82] . وبالرغم من تفصيل «وليم الصوري» لشروط هذا الزواج السياسي وثروة كونتيسة صقلية وأسباب فشل هذا الزواج ، فإنه لم يدن «بلدوين» الإدانة التي تليق به ، لانتهاكه تعاليم الكاثوليكية التي تحرم تعدد الزوجات .

وحدث بعد ثلاث سنوات من هذا الزواج السياسي ، أن مرض «بلدوين» مرضاً شديد في أثناء حملة له في جنوب مملكة «بيت المقدس» وخشى الموت ، وهنا يصرح «وليم الصوري» أن «بلدوين» وخزه ضميره وأنّبه أشد التأنيب ؛ لأنه ارتكب خطيئة حين سرح زوجته الشرعية «إراد بنت ثوروس الأرمني» ، وهنا يذكر وليم أن نفراً من الأتقياء نصحوه أن يكفر عما ارتكبه ، وأن يصرف المرأة التي تزوجها أي «أدليد» كونتيسة صقلية . وعندما صارح «بلدوين» الكونتيسة بذلك «تسعّرت غيظاً» كما يذكر «وليم الصوري»[83] .

وزحفت في عام 1115م حملة سلجوقية كبيرة يقودها برسق بن برسق صاحب همذان واتجهت نحو «أنطاكية» ، ويبدو أن طغتكين ـ أمير دمشق ـ علم أن هدف الحملة هو الاستيلاء على إمارته دمشق ، ولذا سعى إلى الملك

«بلدوين» لعقد حلف معه ضد برسق . ويصرح «وليم الصوري» أن السبب الرئيس لقبول «بلدوين» هذا الحلف هو خوفه على سلامة الإمارة ولربما يقصد إمارة «أنطاكية» . ولكن «وليم» عندما ذكر خبر وصول وفد دمشق من قبل طغتكين للملك «بلدوين» أوضح أنه كان معهم «غالي التحف وثمين الهدايا» ، وبالرغم من عقد هذا التحالف فإن قوات الحلفاء لم تصطدم بقوات برسق ؛ حيث تظاهر برسق بالارتداد عن شيزر ، مما دفع قوات الحلفاء للرجوع إلى بلادها . ثم حدث أن تقدمت قوات برسق في «أنطاكية» ، وتلقت هزيمة شديدة في تل «دانيث» على يد قوات روجر أمير «أنطاكية» وقوات «بلدوين» كونت «الرها» ، وكان ذلك في 12 من سبتمبر عام 1115م[84] . وهنا نلاحظ أن «وليم» يعتب على «بلدوين» وبقية القادة تعجلهم في تسريح قواتهم بالرغم من عدم تأكدهم من تراجع قوات برسق .

وعندما يتحدث «وليم الصوري» عن الخلاف الذي وقع بين مملكة «بيت المقدس» وبطركية «أنطاكية» ، والذي بدأ سنة 1111م عندما طلب «بلدوين» ـ وبإلحاح من رجال الدين كما يقول «وليم» ـ من البابا «بسكال» أن يضم كل كنيسة مدينة جديدة يحتلها «بلدوين» إلى بطركية «بيت المقدس» . وقد جر قبول البابا هذا الطلب غضب رجال الدين بأنطاكية ، حيث تمسكوا بقرارات المجامع الكنيسة المسكونية الخاصة فيما يتصل بتبعية كنيسة مدينة «صور» لكنيسة «أنطاكية» ، فاشتكوا عند البابا ، وعموما أظهر «وليم الصوري» فطنة كبيرة في تناوله هذا الموضوع فلم يطرح رأيه حول هذا الخلاف ، بل ذكر نصوص رسائل كثيرة أرسلها البابا للأطراف المختلفة يوضح حرصه على عدم إغضاب أحد ، سواء كان رجل دين أو رجلاً علمانياً . وعموماً تدل نصوص هذه الرسائل على تعجل البابا في قبول طلب «بلدوين» وتراجعه عن قبول دخول أية كنيسة ـ كانت قديماً خاضعة لكنيسة «أنطاكية» ـ للدخول في تبعية كنيسة «بيت المقدس» . وهكذا أظهر «وليم الصوري» قدرة فائقة على تفادي الاستنكار على «بلدوين» ، وكذلك على البابوية التي ظهرت في هذه القضية متحيزة لملك «بيت المقدس» ، ثم ظهرت ضعيفة أمام غضب رجال الدين بأنطاكية .

وخرج «بلدوين» في عام 1118م بحملة استكشافية لساحل مصر الشمالي جهة «الفرما» ؛ حيث أكل سمكا من نهر النيل فاضطرب بطنه ، كما عاوده آلام جرح قديم ، وتدهورت صحته فمات وهو محمول في منطقة العريش ، وحمل جثمانه إلى «بيت المقدس» ؛ حيث دفن في كنيسة القيامة في موضع الجلجلة(86) .

الخاتمة

لقد بذلت جهدي أن أكون موضوعيّاً خلال دراستي لموضوعية المؤرخ «وليم الصوري» الذي يعد أشهر مؤرخي اللاتين في عصره ، وأشهر من أرخ للحروب الصليبية في القرن الثاني عشر . وقد اخترت دراسة موضوعيته تجاه أربعة قادة صليبيين مشهورين وهم «جودفري» ، وبوهميند ، وتانكريد«بلدوين» خلال الفترة ما بين سنتي 1095م إلى حوالي 1127م . وقد قارنت موضوعية «وليم الصوري» بثلاثة من أشهر من كتب عن الحروب الصليبية في مرحلتها الباكرة ، وهم «فوشيه الشارتري» ، والمؤرخ النورماني المجهول صاحب (الجستا) ، وأخيراً «ريموندا جيل» . ويبدو لي أن هذه المنهجية فيها شيء من الموضوعية لكوني قارنته بمؤرخين صليبيين وليس بمؤرخين منافسين كالمسلمين أو البيزنطيين . وقد أوضحت في مقدمة البحث ـ مما استشهدت به من أقوال ويليم الصوري نفسه ـ شدة حرصه على أمانة النقل والصدق وربما الموضوعية وإن لم تكن هذه الموضوعية معروفة في عصره كما هي في عصرنا .

وقد بدا لي أن «وليم» لم يكن موضوعيّاً بدرجة كبيرة ، فقد استهل «وليم» كتابه بفرضية غير موضوعية تقوم على أساس أن المشروع الصليبي هو مشروع رباني فهو يقول : «إن اهتمامنا في هذا الكتاب منصب على بيان طريقة وتنظيم هذه الخطة الإلهية التي أرادها الله لإنقاذ شعبه من بلواه تمجيداً للمخلصين للمسيح» . فوليم في المقام الأول هو رجل دين كنسي معروف ، كما

أنه رجل سياسة ، وقد أوضحت ذلك في مقدمة البحث . وقد بدا ميله أكثر للجانب الذي يحقق انتصارات ونجاحات للمشروع الصليبي حتى لو خالف المبادئ الدينية والسياسية لعصره ، فبالرغم من محاولاته الكثيرة الظهور بمظهر الرجل المتمسك بالدين الكاثوليكي وكنيسته فإنه غالباً يبرر تجرؤ هؤلاء القادة الصليبيين على الكنيسة الكاثوليكية ورجالها . وقد بدا ذلك واضحاً خاصة في دراستي لموضوعيته تجاه «بلدوين» الذي برر بمبررات ضعيفة خروجه على كثير من مبادئ الكنيسة الكاثوليكية ، وكذلك خروجه على قيم القائد الصليبي وأخلاقياته ، مع أنه من المفترض أن يكون قدوة لغيره ، ووجدناه قاسياً أكثر من «بلدوين» عندما يُنصّب و يعزل بطركاً لبيت المقدس مخالفاً لأعراف الكنيسة الكاثوليكية ، على حين نراه يبرر لبلدوين انحرافه الأخلاقي بقضاء الله وقدره .

كما حاول «وليم» جهده أن يُظهر القادة الصليبيين بصورة جيدة وربما في بعض الأحيان بصورة مثالية ، وقد كانت منازعات هؤلاء القادة على السلطة والمصلحة الخاصة لها نصيب الأسد ، ولكن «وليم» أبدع في تبرير كثير من هذه المنازعات محاولاً التقليل من تشويه صورة هؤلاء القادة الأوائل الذين قادوا المشروع الصليبي في مراحله المبكرة ، وغالباً ما يقف «وليم» في هذه النزاعات في صف من سينتصر ويحقق أهداف المشروع الصليبي ، وهكذا بدا «وليم» براجماتيّا (نفعياً) أكثر منه مؤرخاً دينيّاً كنسيّا عاش في القرن الثاني عشر .

الهوامش والمراجع

(1) Peter W. Edbury and John Gordone Rowe: Wiliam of Tyre (Historian of the Latin East) p (46 - 47).

(2) وليم الصوري ، ترجمة : حسن حبشي ، ج1 ص49 - 50 ، Peter W.Edbury and John Gordon Rowe, Wiliam ot Tyre, p3.

(3) وليم الصوري ، ج1 ، ص50 - 51 .

(4) وليم الصوري ، ج1 ، ص51 - 52 .

(5) وليم الصوري ، الجزء الأول ، مقدمة الجزء للمترجم ، 5 - 6 ؛ Peter W. Edbury, pp. 13-17 .

(6) Peter W. Edbury and John G. Rowe, p 15 - 16 .

(7) وليم الصوري ، ج1 ، ص145 - 151 .

(8) وليم الصوري ، ج1 ، ص152 - 156 ؛ المؤرخ المجهول ، ص23 - 24 ينعت المؤرخ المجهول «جودفري» بمقدم جميع السادة .

(9) وليم الصوري ، ج1 ، ص232 - 333 ؛ فوشيه الشارتري ، ص115 - 117 ، يذكر فوشيه خبر مرور الصليبيين بأنطاكية الصغرى في مقاطعة بيسيديا ، ولكنه لم يذكر خبر «جودفري» وقتاله للدب .

(10) وليم الصوري ، ج2 ، ص323 - 324 ؛ ريموناجيل ، ص105 - 108 ؛ المؤرخ المجهول ، ص- 64 60 ، لم يذكر المؤرخ المجهول ولا ريموناجيل بطولة لأي أحد من القادة الصليبيين في هذه المعركة ، بل لم يخصا أحداً منهم ببطولة وشجاعة متميزة . ويحمل ريموناجيل كلا من «بوهيموند» و«ريمون» مسؤولية هزيمة قواتهما لعدم ضبطهما لقواتهما ؛ فقد كانت تسير بتهور دون نظام .

(11) وليم الصوري ، ج2 ، ص21 - 22 ؛ ريموناجيل ، ص155 - 156 .

(12) وليم الصوري ، ج2 ، ص41 - 49 ؛ ريموناجيل ، ص166 - 171 .

(13) وليم الصوري ، ج2 ، ص108 .

(14) وليم الصوري ، ج2 ، ص125 .

(15) وليم الصوري ، ج2 ، ص143 - 147 ؛ فوشيه الشارتري ، ص156 ، يؤكد فوشيه أن كل الصليبيين أجمعوا على اختيار «جودفري» حاكماً لبيت المقدس ولم يذكر وقوع خلاف بين القادة العلمانيين ورجال الدين .

(16) وليم الصوري ، ج2 ، ص148 - 149 ؛ ريموناجيل ، ص258 ، يتفق ريموناجيل مع وليم الصوري حول اضطرار أسقف البارة تسليم برج داود لجودفري .

(17) وليم الصوري ، ج2 ، ص154 - 156 .

(18) وليم الصوري ، ج2 ، ص159 - 160 .

(19) وليم الصوري ، ج2 ، ص160 - 166 ؛ ريموناجيل ، ص260 - 263 ؛ فوشيه الشارتري ، ص158 ، يتفق فوشيه ريموناجيل مع «وليم» على سبب هزيمة الفاطميين في هذه المعركة .

(20) وليم الصوري ، ج2 ، ص172 - 179 .

(21) وليم الصوري ، ج2 ، ص186 - 187 .

(22) وليم الصوري ، ج1 ، ص242 - 243 ؛ فوشيه الشارتري ، ص118 .

(23) وليم الصوري ، ج1 ، ص136 ، ص255 ؛ ريموناجيل ، ص186 ، يذكر «وليم» أن أهالي «طرطوس» هم من النصارى الأرمن والإغريق ، وأن حاميتها من الأتراك سلمت المدينة صلحا لتانكريد ، ويذكر أن أهل «طرطوس» اشترطوا على «تانكريد» أن يسلم مدينتهم لبوهيموند والجيش الرئيسي ، على حين يرى ريموناجيل أن المسلمين فروا من «طرطوس» خوفاً من الصليبيين .

(24) وليم الصوري ، ج1 ، ص256 .

(25) وليم الصوري ، ج1 ، ص263 .

(26) وليم الصوري ، ج1 ، ص329 - 330 ؛ فوشيه الشارتري ، ص120 . يذكر فوشيه أن المؤامرة تمت بعد خمسة عشر يوما من قدوم «بلدوين» للرها ، ويصف منح الأرمن الحكم لبلدوين بعد نجاح المؤامرة بأنه هدية من المواطنين الأرمن الذين تآمروا على أميرهم ثوروس .

(27) وليم الصوري ، ج1 ، ص340 ؛ فوشيه الشارتري ، ص160 .

(28) وليم الصوري ، ج2 ، ص21 .

(29) وليم الصوري ، ج2 ، ص28 - 29 .

(30) فوشيه الشارتري ، ص161 .

(31) وليم الصوري ، ج2 ، ص193 - 197 ؛ فوشيه الشارتري ، ص169 - 170 .

(32) وليم الصوري ، ج1 ، ص169 - 170 .

(33) وليم الصوري ، ج1 ، ص171 - 172 ؛ ميخائيل ، زابوروف «**الصليبيون في الشرق**» ، دار التقدم ، موسكو ، 1986م ، ترجمه : عن اللغة الروسية إلى اللغة العربية إلياس شاهين ، ص32 ؛ فوشيه الشارتري ، ص161 ؛ المؤرخ المجهول ، ص30 ، ص33 . يصف فوشيه «بوهيموند» بأنه رجل قوي حكيم . ويصف المؤرخ المجهول «بوهيموند» بالشجاع والمعظم الجليل والعاقل ، ويزعم المؤرخ المجهول بأنه الإمبراطور البيزنطي وعد «بوهيموند» بأن يقطعه أرضا وراء «أنطاكية» .

(34) وليم الصوري ، ج1 ، ص377 ؛ ريموناجيل ، ص141 - 145 .

(35) وليم الصوري ، ج2 ، ص21 ؛ ريموناجيل ، ص92 ، يذكر ريموناجيل أن القائد البيزنطي المصاحب للصليبيين تاتيكيوس قد وعد ـ قبل فراره من حصار «أنطاكية» ـ أن يتنازل لبوهيموند عن ثلاث مدن ، وهي «طرطوس» والمصيصة وأظنة .

(36) وليم الصوري ، ج2 ، ص23 - 24 ؛ ريموناجيل ، ص155 - 156 .

(37) وليم الصوري ، ج2 ، ص49 - 50 ؛ فوشيه الشارتري ، ص161 .

(38) وليم الصوري ، ج2 ، ص183 - 184 ؛ فوشيه الشارتري ، ص166 - 169 ، تتفق روايه فوشيه مع رواية «وليم» تقريباً .

(39) وليم الصوري ، ج2 ، ص247 - 252 ، فوشيه الشارتري ، ص218 - 220 ، يذكر فوشيه خبر فرار «بوهيموند» و«تانكريد» ، ولكنه لم يذكر خبر فرارهما قبل حسم المعركة كلما أعلمنا وليم الصوري .

(40) فوشيه الشارتري ، ص218 - 220 .

(41) وليم الصوري ، ج2 ، ص240 - 241 ؛ فوشيه الشاررري ، ص217 - 218 .

(42) وليم الصوري ، ج1 ، 172 - 173 ؛ المؤرخ المجهول ، ص27 . تتفق رواية وليم الصوري هنا مع المؤرخ المجهول .

(43) وليم الصوري ، ج1 ، ص222 - 225 ؛ فوشيه الشارتري ، ص114 ، يثني فوشيه على شجاعة القادة الصليبيين وبسالتهم في هذه المعركة ولم يذكر منهم «تانكريد» ، وذكر منهم «بوهيموند» خال «تانكريد» الذي أنقذه ، كما لم يذكر فوشيه «تانكريد» في هذه المعركة .

(44) وليم الصوري ، ج1 ، ص236 - 240 ؛ المؤرخ المجهول ، ص44 - 45 ، يتفق المؤرخ المجهول مع «وليم» في وقوفه في صف «تانكريد» في هذا الخلاف ، وينفرد المؤرخ المجهول بذكر اقتراح

«بلدوين» لتانكريد وهو أن يخرجا بقواتهما عن «طرطوس» . ثم يقوما معا بغزوها ونهبها من سكانها النصاري الأرمن ، وهنا يستغرب «تانكريد» هذا الاقتراح الذي يصفه بقوله : «ما أبغض هذا المسلك إلى نفسي . . إنني لا أريد سلب النصارى ، ولقد اختارني رجال هذه المدينة أميراً عليهم» .

(45) وليم الصوري ، ج1 ، ص244 - 246 .

(46) وليم الصوري ، ج2 ، ص95 - 110 ؛ ريموناجيل ، ص190 وص240 . يخبرنا ريموناجيل أن «تانكريد» احتل بيت لحم في أثناء حصار الصليبيين لبيت المقدس في آخر شهر يونيو ، وقد ذكر ذلك في معرض حديثه عن الخلافات بين القادة الصليبيين .

(47) وليم الصوري ، ج2 ، ص123 - 124 .

(48) وليم الصوري ، ج2 ، ص126 ؛ فوشيه الشارتري ، ص154 ، يوافق فوشيه وليم الصوري فيما يتعلق بإعادة «تانكريد» الأموال التي غلّها من المسجد الأقصى والذي يسميه معبد الرب ؛ المؤرخ المجهول ، ص114 - 119 . لم يذكر المؤرخ المجهول اسم أي أحد من القادة الصليبيين الذين قاموا بتلك المذبحة ، والمعروف أن المؤرخ المجهول متحيز كثيراً لتانكريد ؛ ريموناجيل ، ص247 .

(49) وليم الصوري ، ج2 ، ص126 - 128 .

(50) وليم الصوري ، ج2 ، ص179 ؛ فوشيه الشارتري ، ص161 .

(51) وليم الصوري ، ج2 ، ص210 ؛ فوشيه الشارتري ، ص188 ، يذكر فوشيه أن مغادرة «تانكريد» لمملكة «بيت المقدس نحو «أنطاكية» لحكمها تم في شهر مارس من نفس العام .

(52) وليم الصوري ، ج2 ، ص237 - 238 .

(53) وليم الصوري ، ج2 ، ص238 - 239 .

(54) وليم الصوري ، ج2 ، ص240 - 241 ؛ فوشيه الشارتري ، ص215 ، يذكر فوشيه أن «بوهيموند» استلم من «تانكريد» مدينة اللاذقية ومنحه تعويضاً عنها بوصفه إقطاعياً .

(55) وليم الصوري ، ج2 ، ص257 - 258 .

(56) وليم الصوري ، ج2 ، ص261 .

(57) وليم الصوري ، ج2 ، ص274 - 275 .

(58) وليم الصوري ، ج2 ، ص295 - 296 ؛ فوشيه الشارتري ، ص243 - 245 . يبدو أن وليم الصوري أراد إطراء «تانكريد» وذلك بطلبه المساعدة من «بلدوين» ملك «بيت المقدس» الذي كان خصمه سابقاً ومنافسه ، وبخاصة عندما اختصما على ملك مدينة «طرطوس» سنة 1097م والذي سبق أن ذكرتها عند بداية حديثي عن «تانكريد» .

(59) وليم الصوري ، ج2 ، ص299 ؛ فوشيه الشارتري ، ص246 .

(60) وليم الصوري ، ج2 ، ص196 - 202 ، وص209 . عندما تحدث «وليم» عن حادثة أسر «بوهيموند» لم يعطنا تاريخ أسره وإن ذكر هذا الخبر قبل وفاة «جودفري» بثلاث صفحات .

(61) وليم الصوري ، ج2 ، ص195 ؛ فوشيه الشارتري ، ص173 ، يذكر فوشيه أن «بلدوين» قد حزن على موت أخيه «جودفري» ، ولكنه ابتهج أكثر بسبب ميراثه . ولم يورد وليم الصوري وصفاً لمشاعر «بلدوين» هذه ، وهو ـ أي «وليم» ـ يرى أن «بلدوين» لا يستحق ملك «بيت المقدس» ؛

لأنه تعهد لبطرك «أنطاكية» بوراثتها بعد موته .

(62) وليم الصوري ، ج2 ، ص196 .

(63) وليم الصوري ، ج2 ، ص202 ؛ فوشيه الشارتري ، ص173 - 180 ، يتفق وصف وليم الصوري مع فوشيه الشارتري لهذه الرحلة الجريئة . وواضح أن «وليم» اقتبس كثيراً من فوشيه في ذكر التفاصيل وإن كان يقدر عدد المشاة بثمان مئة وليس سبع مئة كما يقدر فوشيه .

(64) وليم الصوري ، ج2 ، ص204 - 205 .

(65) وليم الصوري ، ج2 ، ص208 ؛ فوشيه الشارتري ، ص181 ، لم يبين فوشيه ما إذا كان قتل «بلدوين» لقطاع الطرق قد تم في أثناء القتال أم أنه تم إعدامهم بعد استسلامهم كما يوضح وليم الصوري ، ونلاحظ أن «وليم» لقب «بلدوين» هنا بالكونت لأنه لم يكن قد توج ملكاً بعد .

(66) وليم الصوري ، ج2 ، ص211 - 212 .

(67) وليم الصوري ، ج2 ، ص219 - 221 ؛ فوشيه الشارتري ، ص188 - 192 ، 200 .

(68) وليم الصوري ، ج2 ، ص221 .

(69) وليم الصوري ، ج2 ، ص233 ؛ فوشيه الشارتري ، ص206 - 208 .

(70) وليم الصوري ، ج2 ، ص229 - 230 .

(71) وليم الصوري ، ج2 ، ص233 - 235 ؛ فوشيه ص208 - 210 ؛ فوشيه الشارتري ، ص208 - 210 . يتفق فوشيه مع «وليم» على تحميل «بلدوين» مسؤولية تلك الهزيمة . ويروي «وليم» رواية ـ يبدو أنها مختلفة ـ تخبرنا أن الذي انقذ «بلدوين» وسهل له فراره من ذلك الحصن هو نفسه الشيخ العربي الذي أحسن «بلدوين» لزوجته ، وقد سبق أن ذكرنا هذا الحدث قبل قليل ، على حين لا يذكر فوشيه هذه الرواية .

(72) وليم الصوري ، ج2 ، ص233 - 236 .

(73) وليم الصوري ، ج2 ، ص241 - 242 .

(74) وليم الصوري ، ج2 ، ص245 - 247 ؛ فوشيه الشارتري ، ص216 ، ص217 .

(75) وليم الصوري ، ج2 ، ص258 - 259 .

(76) وليم الصوري ، ج2 ، ص262 - 264 .

(77) وليم الصوري ، ج2 ، ص275 - 276 ؛ فوشيه الشارتري ، ص236 - 238 . يرى فوشيه أن مقتل «وليم» جوردان وقع في أثناء المفاوضات وجهود الوساطة .

(78) وليم الصوري ، ج2 ، ص278 - 280 .

(79) وليم الصوري ، ج2 ، ص283 - 287 .

(80) وليم الصوري ، ج2 ، ص288 - 290 ؛ فوشيه الشارتري ، ص239 ، لا يذكر فوشيه خبر وقوع مذبحة لمسلمي بيروت .

(81) وليم الصوري ، ج2 ، ص200 - 303 ؛ فوشيه الشارتري ، ص247 - 249 ، يتفق فوشيه كثيرا في ذكر تفاصيل هذه الحملة ، ويحمل فوشيه الملك «بلدوين» الأول مسؤولية الهزيمة ، ولكن يعبر عن ذلك بإدانة قادة الصليبيين لملكهم ولا ينسب ذلك لنفسه مباشرة .

(82) وليم الصوري ، ج2 ، ص303 - 305 .

(83) وليم الصوري ، ج2 ، ص326 - 327 ؛ فوشيه الشارتري ، ص260 ، يذكر فوشيه حادثة زواج «بلدوين» الأول من أدليد ثم طلاقه منها باختصار شديد ، وكأنه لا يود أن يدين ولي نعمته الملك «بلدوين» الأول ، حيث كان فوشيه آنذاك قسيس الملك .

(84) وليم الصوري ، ج2 ، ص309 - 316 ؛ فوشيه الشارتري ، ص253 - 256 ، يرى فوشيه أن قوات برسق انسحبت ودخلت مغارات ، فظن الصليبيون أنهم انسحبوا تماماً ، ولهذا انسحب الملك «بلدوين» نحو «طرابلس» .

(85) وليم الصوري ، ج2 ، ص319 - 325 .

(86) وليم الصوري ، ج2 ، ص228 - 230 ؛ فوشيه الشارتري ، ص263 - 265 .

* * *